القضية قوله تعالى" ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف. "وليس هنالك إنصاف وإنقاذ يخطر في التصور أفضل وأكبر من هذا الإنصاف وهذا الإنقاذ اللذين أنزلهما الله في كتابه المقدس تخليداً لحقوق المرأة ووضعاً لها في موضعها الطبيعي.

وقد بقي من مظالم الرجل وأنانيته النكراء – في ما بقي – تحريم التعليم على المرأة وزعمه أنه يجب أن تظل محرومة من كل سلاح قد ترفعه في وجهه، ومن كل قوة قد تقاوي قوته. وإنه يعلم أن أعظم سلاح وأقوى قوة هو العلم، فذهب يحرمه عليها ثم ذهب كدأبه يتهم الأديان بهذا التحريم. ولا ريب في أن من أسباب هذا التحريم غيرة الرجل وجهله.

بماذا يعللون تحريم هذا التعليم، وما هي الأسباب التي يدعون أنها هي الموجبة لهذا التحريم؟ يقولون في ذلك: إن المرأة خلقت للبيت لا للوظائف ولا للمتاجر ولا للدواوين وغيرها، وما دامت كذلك فما فائدة التعليم! ويقولون إن المرأة إذا تعلمت طغت أخلاقها وخرجت عن طورها وأضحت مخلوقاً طاغياً باغيا! ويقولون أيضاً إن تعليمها يوجب إختلاطها بالرجال وإتصالها بهم. وهذا حرام وإجرام! ويقولون بعد ذلك: إنها إذا علمت وفهمت كالرجل راحت تنظر إلى الرجال نظرة المساواة، وراحت تكبر في نفسها وتتكبر. وإذا ما نظرت إلى حقيقتها هذه النظرة فلن تذل للرجل ولن تخضع له الخضوع المطلوب المبقي على المودة وعلى الحياة بينهما مستقرة مقبولة... هذا كل ما يذكرون أو كل ما يمكن أن يذكروه في هذه القضية.

وهذه الأمور التي عدوها أسباباً وبراهين مستدلين بها على أن من الخير إبقاء المرأة جاهلة، هي في الحقيقة تدل على عكس ما أرادوا.

أما أن المرأة خلقت للبيت فيقال: إذا صح هذا وصح أنه يجب بقاؤها كذلك بحيث تنقطع صلاتها بالخارج وأعمالها فيه – وليس من الممكن أن يكون صحيحاً – قيل في الجواب: إن هذا مما يوجب أن تكون متعلمة مثقفة لا أمية غبية. وذلك أن وظيفتها إذا كانت في البيت وللبيت فمعنى هذا أنها مسؤولة عن سعادة البيت ومن فيه من الأولاد والزوج وغيرهم، وعن التنظيم والتدبير والتربية والإرشاد والتوجيه والتمريض وعن كل ما يلزم في هذا من بناء أجسام الصغار وبناء أرواحهم، ومن سياسة الكبار وتوفير أفراحهم وعن حل جميع

المشكلات والأزمات التي تنعقد بين الصغار والصغار، وبين الكبار والكبار وبين كل أحد... وبالإجمال مسؤولة عن كل ما يتصل بالبيت ومن بالبيت: فمسؤولة عن دراسة أولادها وعن مواظبتهم على الذهاب إلى المدرسة وعنايتهم بدروسهم وعن نجاحهم وسبقهم وإستمرارهم، وعن المحافظة على صحتهم ما داموا أصحاء، وعن معالجتهم وتمريضهم إذا مرضوا، وعن غذائهم وما يصلح من ذلك وما لا يصلح في حالة الصحة والمرض، وعن نومهم – متى وكيف، وعن ملابسهم – ما هي وكيف هي، وعن لعبهم ولهوهم وجدهم ودخولهم وخروجهم، وعن مراقبة نمو أجسامهم ونفوسهم وعن كل شيء له صلة بهذه المسائل... ومسؤولة عن الزوج – عن تخفيف أزماته ومساعدته فيها إذا نزلت وعن توجيهه وتشجيعه على الإقدام وعلى إدراك النجاح، وعن سياسته ورضاه وإبعاد كل ما يمكن أن يؤذي نفسه أو جسمه وما قد يشكو منه من قرب أو من بعد، وعن محادثته بالأحاديث التي تجلب الرضا والغبطة، وتبعد ما يجلب الهم والكآبة، وعما يجب في هذه المحادثة من اللطف ودقة الحس وشفوف النفس، وعن مجانبة كل الألفاظ الجارحة أو التافهة أو المنكرة أو النابية أو التي قد تحدث نوعاً من أنواع الإشمئزاز أو الغضب.

ومسؤولة عن نفسها – وأعظم بهذه من مسألة – كيف تهذب ظاهرها وباطنها، ثم كيف ترى وتسمع وتبدو وتشم، وكيف تظهر لنفسها ولزوجها ولأولادها ولأقاربها وزوارها ولكل أحد، وكيف يكون سلوكها العملي والقولي والفكري أمام أطفالها وأبيهم وأمام كل الناس، وكيف تروض نفسها وتروض أخلاقها وطباعها على كل حسن جميل، وكيف تصلح أفكارها وعقائدها ودينها وتبعد عنها الفساد والخطل والبدع والشناعات وصنوف الترهات والعادات القبيحة، وكيف تستطيع أن تتخلص من التقاليد الباطلة السخيفة، وكيف تجد الشجاعة والحذق والبراعة في هذا التخلص، وكيف تتطور مع ما يجد على مر الزمان من الآراء والعلوم والعادات والأشياء الجميلة الحسنة المفيدة... وكيف وكيف... وكم نقول من كيف وكيف.

إذن هي مسؤولة عن كل ما في البيت وعن كل ما يدخل فيه وما يخرج منه... والأمة كلها لا تخرج في مجموعها عن أن تكون مما يدخل ويخرج من البيت وفي البيت. وأفراد الشعب قاطبة أبناء البيت. فهي مسؤولة عنهم إذن جميعاً: فهي

http://www.ifhar.com

مسؤولة عن الأمة كلها، وعن إسعادها وتربيتها وتوجيهها وسوقها إلى الخير والكمال، وعن بناء أجسامها وتكوين أرواحها.

وإذا كان هذا كله حقاً – وهو بلا ريب حق – قيل كيف يمكن للمرأة الجاهلة المحرومة من كل تعليم ومن كل تهذيب، بل المحرومة من مبادىء الكتابة والقراءة أن تقوم بكل هذا؟ بل كيف يمكن المرأة المتعلمة نصف تعليم أو بعض تعليم أن تقدر على القيام بهذه الأعمال الجلي؟ بل لو قيل كيف تستطيع المرأة المتعلمة أفضل تعليم وأكمله أن تفي هذه الأغراض حقها، وقيل إن هذا غير مستطاع لكان قولاً حقاً.

أليس معنى هذا أنه يجب أن تكون المرأة عالمة بكل علم إن كان ذلك مستطاعاً أو أن تكون ملمة بمبادىء العلوم كلها إلماماً كافياً، وأن تكون عارفة بأصول التربية، وأصول علم النفس، وأصول علم الإقتصاد والفلسفة والآداب، عارفة بطرق التغذية وأصناف الأغذية وبالصحة والتمريض وبشيء كثير مما يسمى الفنون الجميلة، عارفة بالمحادثة وأصولها، عارفة بكل ما يلزم لصلات الناس بعضهم ببعض.

لو أن قائلاً قال: إن تعليم المرأة أوجب وأفضل من تعليم الرجل من أجل ما ذكرنا ومن أجل ما سواه لما كان قوله باطلاً ولما كان قائلاً غير الحق. ولو أن قائلاً قال: إن الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا أمل في نهوضها ووثوبها – أو قال إن الأمة التي لا تتعلم نساؤها لا رجاء في أن يتعلم رجالها تعلماً صحيحاً مجدياً – أو قال إن الأمة التي تتعلم نساؤها – ونقصد بلا شك التعليم الصحيح المثمر – فلا محالة أن تدفع رجالها إلى التعليم وأن تعد شعباً متعلماً – أو قال إن من أظهر الأسباب في إنحطاط المسلمين وتأخرهم عن الآخرين وعجزهم في كل الميادين جهل المرأة – أو قال إن الأمة التي يتعلم نساؤها دون رجالها لأفضل من الأمة التي يتعلم رجالها دون نسائها – أو قال علموا المرأة ثم املأوا أنفسكم بالثقة والأمل ولا تخشوا بعد تعليمها شيئاً – لو أن قائلاً قال هذا كله أو قال بعضه لما قال له العاقلون: أخطأت... فهذا الذي ذكروه إذن هو برهان على وجوب تعليمها لا على وجوب جهلها.

إننا لو جمعنا هؤلاء المصابين بالعاهات الدائمة الذين تغص بهم الطرقات في كل مكان، ثم حاولنا أن نقوم بتحقيق دقيق لتاريخ إصاباتهم وكيف أصيبوا

لعلمنا أنهم أصيبوا كلهم من جراء الإهمال، وأن أسباب الإهمال ترجع كلها إلى جهل الأم لأنها غير متعلمة، فهي لا تعلم عقبى التفريط ولا تعلم كيف تؤدي الأسباب لا محالة إلى نتائجها! بل إنها لا تدري ما الأسباب وما المسببات: فليس المرض عندها هو الذي يحدث الموت أو العاهة، وليس العلاج والوقاية هما اللذان يمنعان ذلك! وهي تعالج مرض العين مثلاً بالتميمة والرقية، كما تعالج جميع الأمراض بالطلاسم والسحريات! بل تعالج الأمراض النفسية أو الفساد الخلقي بهذا. وليس للطب ولا للعلم لديها قيمة. ولو أنها آمنت بعض الإيمان بفائدة بعض هذا وحاولت الأخذ به لما عرفت كيف تفعل.

إن أعظم النفائس البشرية والكنوز الإنسانية – وهي الأطفال وصحتهم – لتوضع بغباء ليس له مثيل وبلاهة ليس لها ند في يد المرأة الجاهلة، فتفسدها وتضيعها وتبددها... إنه ليس في القوانين غلطة أكبر من ترك هؤلاء الأطفال ضحايا جهل هؤلاء الجاهلات بدون أن يوجد فيها ما يحميهم وينقذهم وينقذ صحتهم وحياتهم من هذا القتل والتشويه العلنيين.

من البعيد أو من المستحيل أن يصاب طفل امرأة متعلمة تعليماً كاملاً بإحدى هذه العاهات المنتشرة بين أطفال النساء الأميات... ومن الملاحظات التي تقررها الإحصاءات الصحية الرسمية أن نسبة الوفيات في أطفال الوطنيين أرفع جداً من نسبة الوفيات في أطفال الأجانب. ويجب أن يكون معلوماً أنه لا سبب لهذا سوى تعلم الأجنبيات وجهل الوطنيات المسلمات. وهذا السبب طبعاً لا يعرفه ولا يعترف به الجاهلون ولا الجاهلات. إذ قد يحسبون أن الله يتقصد المسلمين دون غيرهم بقتل أولادهم وتشويههم لأنه يحبهم أو لأنه يريد أن يبتليهم ويمتحنهم أو يعذبهم من أجل أن يجازيهم في الآخرة! كأن الله عندهم لا يحسن إلا إذا عذب وأساء أولاً! ولو أن إنساناً صنع هذا لكان أبخل البخلاء وأسفه السفهاء! تعالى الله عما يقول الجاهلون.

وأما قولهم: إن التعليم يفسد أخلاق المرأة وطباعها ويجعلها طاغية باغية – فهو قول لو وصف بأنه من أفسد الأقوال لكان ذلك أقل ما يستحق! إذ كيف يفسد العلم الأخلاق! وهل يفسدها سوى الجهل والغباء؟ ولو كان من طبيعة العلم الإفساد لكان مفسداً للرجل أيضاً ولما كان مأموراً به في الأديان والآداب والقوانين! ولا يدري كيف يمكن أن يكون النور سبباً في العثار، وأن يكون الظلام

http://www.ithar.com

سبباً في النجاة وفي إبصار الطريق وإبصار ما فيه؟

نعم قد يلاحظ على بعض المتعلمات عندنا وعند غيرنا أيضاً شيء من الإعوجاج والكبر والجور عن السبيل؛ ولكن ليس هذا راجعاً ولا ناشئاً من العلم والتعليم، ولكنه راجع وناشىء من البيئة الجاهلة ومن مخلفات الجهل الراسبة في النفوس وفي الأعماق، ومن عدم نضج التعليم ومن أشياء أخرى بلا شك. ولهذا فإننا نرى أن الشعوب المتقدمة في تاريخ تعليم المرأة أصلح نساء وأصلح تعليماً لهن وفيهن. وإذا علمت المرأة وهي من بيئة جاهلة ثم أصاب سلوكها ونفسها وشمائلها شيء من الوضر والضرر لم يكن العلم مسؤولاً وإنما المسؤول ما ذكرنا.

ثم لو كان هذا قاضياً بتحريم التعليم على المرأة لكان أيضاً قاضياً بتحريمه على الرجل فإن الرجال كثيراً ما يلاحظ عليهم بعض هذا الذي يلاحظ على المرأة إذا تعلموا، وقد يلحدون ويكفرون. والعلم بلا شك غير مسؤول لا في هذه ولا في هذه.

أما قولهم إن تعليمها يوجب إختلاطها بالرجال وهو غير جائز، فيقال إن الكلام في مطلق التعليم: أخير هو أم شر لا في طريقته، فهذا موضوع وذاك موضوع آخر، وليسا متلازمين لا واقعاً ولا عقلاً.

ثم يقال يحسب بعض الجاهلين أن مطلق وجود المرأة في المكان الذي فيه الرجل محرم دينياً وعفة. وهذا وهم وجهل. والأديان كلها بخلافه، وحسبنا الإسلام فيصلاً وقاضياً في هذه المسألة: إن الإسلام قد جاء بالإختلاط المحترم العفيف: فالحج فيه هذا الإختلاط والصلوات فيها هذا الإختلاط والحرب فيها هذا الإختلاط والمواعظ فيها هذا الإختلاط والتعليم فيه هذا الإختلاط. هذه أمور مجمع عليها بين علماء الإسلام لا يختلف نقل التاريخ فيها ولا في شيء منها. وقد كان الرسول عليه السلام يعلم الرجال والنساء جميعاً ويعظهم ويعظهن جميعاً ويجاهد بهم وبهن جميعاً. بل كان يأمر بخروجهن إلى المصلى أيام الأعياد ليصلين مع الرجال في الصحراء. وكانت النساء أحياناً يقفن في دروس الرسول ويسألن ويستفهمن في حضور من الرجال فيرد عليهن الرسول الكريم. وكان يأمر بلالاً وغيره بجمع الصدقات منهن في الإجتماعات التي تقام للمواعظ والتعليم. وهذا كله معروف. وهكذا كان الأمر في عهد الخلفاء

الراشدين. ومن الحوادث المشهورة المنقولة في هذا حادثة المرأة التي قامت تعترض على عمر وهو ينهي عن المغالاة في مهور النساء فقال عمر حينما ردت عليه المرأة واحتجت بالقرآن: كل الناس أعلم منك يا عمر حتى النساء، وهذا كثير جداً.

وفي الأحاديث أن أصحاب الرسول كانوا إذا صلوا معه الجمعة انصرفوا إلى بيت امرأة من الأنصار فأطعمتهم وناموا عندها. وفي حديث صحيح أن رجلاً دعا الرسول الكريم إلى الطعام فاشترط الرسول عليه أن يأخذ عائشة معه، وبعد المراجعة رضي الرجل فخرج الرسول وعائشة يتدافعان. وفي الحديث أيضاً أن الرسول وأبا بكر وعمر خرجوا ذات يوم وهم جياع إلى حائط لأحد الأنصار مستضيفين فلم يجدوه ووجدوا زوجه فقابلتهم وأدخلتهم حتى جاء زوجها. وفي حديث صحيح أيضاً أن أحد الأنصار تزوج فدعا الرسول وأصحابه إلى طعامه فكانت الزوج هي التي تخدم على القوم. وفي الحديث الصحيح أن أسماء امرأة الزبير كانت تجمع النوى من ضواحي المدينة لناضح زوجها، فمر بها الرسول وهو راجع هو وأصحابه من إحدى سفراته فرآها فأناخ لها ناقته ليردفها معه، قالت أسماء فذكرت غيرة الزبير فأبيت. ومن الروايات الصحيحة والحوادث الشهيرة أن النساء كن يتعرضن لرسول الله عليه السلام في حجة الوداع يسألنه عن الحج وأحكامه أمام الناس، وأن امرأة جاءته تسأله وكانت وسيمة جميلة وكان مردفاً معه الفضل بن العباس فأخذ الفضل ينظر إليها فراح الرسول عليه السلام يصرف وجهه ونظره إلى الناحية الأخرى. وفي حديث صحيح أن ضيفاً نزل على عائشة فاحتلم فأصبح يغسل ثوبه فقالت عائشة إنما يجزئك أن تغسل مكانه. ومشهور وخبر صحيح خبر قصة المرأة اليهودية التي دعت الرسول وأصحابه في فتح خيبر فقدمت إليهم طعاماً وضعت فيه سماً. وفي أحاديث كثيرة صحيحة من العسير جمعها أن النبي ومعه أصحابه كانوا يذهبون أحياناً كثيرة إلى النساء المسلمات ويطعمون عندهن ويستريحون. وهذه أشياء تعز على الإحصاء والجمع.

والتاريخ الإسلامي العملي والقولي مجمع على هذا. وفي الحديث الصحيح أيضاً أن امرأة جاءت إلى الرسول وهو في مجلس أصحابه فعرضت عليه نفسها للزواج فنظر إليها طويلاً مصعداً نظره ومصوبه، ثم أخبر أنه لا حاجة به إليها

http://www.ittihar.com

فقام رجل من الحاضرين وطلب إلى الرسول أن يزوجه إياها فزوجه.

وفي القرآن الكريم الفاصل في كل خلاف: "ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان. قال ما خطبكما! قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء –... إلى قوله – فجاءته إحداهما تمشي على إستيحاء قالت إن أبي يدعوك"... الآية.

وفي سورة أخرى: "يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك"... الآية.

فهاتان بنتا شعيب النبي كانتا ترعيان غنمهما في الخلاء وتسقيانها وتروحان بها وتجيئان صباحاً ومساء بأمر والدهما وقد رآهما موسى النبي كذلك فلم ينكر عليهما بل كلمهما وسألهما وسقا لهما ووقف معهما وواقفهما... ثم ذهبتا إلى أبيهما النبي وأنبأتاه بذلك فلم ينكر عليهما بل أمر إحداهما بالذهاب إليه ودعوته إلى أبيهما في منزله ومكانه، فجاءته ماشية مستحيية وأنبأته أن أباها يدعوه فذهب معها وفي صحبتها ودلالتها... ولو كان في شيء من هذا إثم أو ريبة لما رضيه هذان النبيان. وإحدى هاتين اللتين كانتا ترعيان وتسقيان والتي ذهبت لدعوة ذلك الضيف الغريب وإحضاره وهدايته إلى البيت كانت بنت نبي وزوجة نبي: بنت شعيب وزوج موسى.

وقد أمر الكتاب الكريم بالإستشهاد بالمرأة وبتأديتها شهادتها، وأمر لها بالحقوق التي للرجل. وهذا لا يكون ممكناً إذا كان من الحرام الممنوع أن تجتمع هي والرجال في مكان واحد كما يحسب بعض المتشددين.

لا شيء يفيد مثل الفهم للأشياء، ولا شيء يضر مثل جهلها: لهذا أراني مضطراً إلى أن أحاول محاولة صادقة فهم هذي المسألة لنفسي وللقراء. ولست أريد سوى الحق أصبت أم أخطأت. وما من شيء يقف في طريق الشعوب والأفراد مثل الجمود والتعصب للموروث المألوف بلا برهان سوى القدم والإلف... وكم من التجار والصناع والعلماء والموظفين وغيرهم من صنوف الأحياء العاملين ظلوا حياتهم كلها حلفاء الضراء لأنهم عجزوا عن أن يغيروا في تجارتهم أو صناعتهم أو وظيفتهم أو طريقتهم أو أسلوبهم، لأنهم في الحقيقة عاجزون عن الخروج عما ألفوا وورثوا. وإن الناس على درجات متفاوتة جداً في هذه المسألة، مسألة القدرة على مفارقة المألوف، بل القدرة على إمتحانه لينبذ إن ثبت أنه غير صالح أو أن غيره أصلح منه. فبعضهم يضع قدميه في أسفل السلم

وبعضهم في أعلى السلم وبعضهم يقف بعيداً جداً... وليس الأفراد وحدهم هم الذين يتفاوتون في هذا، بل الشعوب كذلك تتفاوت تفاوتاً بعيداً. وكلما عظم حظ الشعب من النضج العقلي ومن استواء الآلة الفكرية عظمت قدرته على التحرر من أغلال الماضي الذي يظهر تحت الإختبار فساده أو نقصه، وعظمت قدرته على إختباره ووضعه تحت التجربة الحرة المطلقة... ويمكن أن يقال: بل كلما تعلم الشعب الجراءة على هذا التحرر وهذا الإختبار وهذا النبذ عظم نصيبه من الحضارة والرقي والحياة، فإن الشعوب كلها إنما تأخذ من الحضارة ومن الحياة والعلم بقدر ما لديها من إستعداد لهذه الصفات، صفات المرونة والإمتحان والإنتقال والتحرر والأمم التي تصاب بالجمود والركود والإستمساك بالمعروف المألوف يتضاءل حظها جداً من الحياة ومن القوة بل ومن المعرفة، ويذهب العالم كله من حولها يسير ويتحرك ويسعى وهي متجمدة متبلدة في مكانها عاجزة عن مسابقته ومتابعته، وتبقى أمام كل ما يجد ويحدث من الآراء والعلوم والصناعات وأساليب الحياة المختلفة داخل سور قوي من ذاتها وجمودها لا يمكن إقتحامه ولا إجتيازه، وفي حماية قوية شديدة من الثبات والبقاء، لاجئة إزاء كل مفاجيء جديد رائع إلى نصوصها المقدسة وإلى أديانها الكثيرة، متهمة لها بأنها تأبى هذا الجديد وتنكره. ويقوم من يعدون منها مصلحين متنورين يديرون المعارك الجدلية، منتزعين أسلحتهم من تلك النصوص وهاتيك الأديان ليقنعوا الآخرين من أممهم بجواز ذلك! ولكن أنى لهم هذا!

ولقد جهلت وهانت تلك الأمة التي تحتاج إزاء الحقائق السافرة الملموسة إلى براهين دينية تقنعها بفائدتها أو بجوازها وجواز الأخذ بها. وإذا ما رأيت أمة تعثير غبار الجدل الديني أمام ما يجد من مبتكرات العقل الإنساني – مجوزة أو مانعة، محللة أو محرمة – فاعلم أنها أمة فاشلة مريضة بعقلها وتفكيرها ودينها... والجمود شأن من شؤون الجماهير الجاهلة وشؤون النساء الجاهلات، وشؤون الأمم الهمجية. فكل هؤلاء حراص على ما ألفوا وورثوا، مقاومون لكل من يريدون دفعهم إلى الأمام والخروج بهم نحو النور. وأقدر الناس على التحرر والسير في السبيل هم أولئك الأقوام الممتازون الذين يهبون الشعوب ما هي فيه من أديان ومعارف وصناعات ومخترعات ومكتشفات...

http://www.ithar.com

ولولا هؤلاء لما استطاعت الإنسانية أن تنعم بشيء مما تنعم به اليوم من وجوه هذي الحياة المشرقة الواضحة، ولما استطاعت أن تدرج عن وجودها الأول الفطري البليد... فلكل هؤلاء الذين أعطونا هذه الحياة وعودونا على التحرر والخطو إلى الأمام شكر الإنسانية أجمع.

والقدرة على هذا التحرر هي برهان السمو الفكري، فإن من استطاع أن يترك ما ورث وألف هو وآباؤه منذ آلاف السنين أو مئاتها إنما يصنع ذلك لأن عقله قد أصبح قادراً على التمييز بين الأشياء مألوفها وما لم يؤلف منها، بل وما لم يوجد – وأصبح قادراً على الإمتحان والسبر الذي هو وظيفة العقل الكبرى... والذين يعجزون عن ذلك هم في الواقع لا يزالون عاجزين عن الإرتفاع على العجماوات في فهمها للأمور ودورانها حولها، وتناولها لها، فإن العجماوات إنما تهتدي وتتصرف بحواسها المجردة دون أن تشعر أو تفكر في أن ما لم تحسه وتعتده خير وأفضل مما رأت وأحست وألفت، بل دون أن تدري أن هنالك شيئاً غيره. فهي قانعة راضية بما ألفت واعتادت لا تعرف سواه... وكذلك هذه المخلوقات البشرية التي تأبى مفارقة إلفها وإعتيادها إنما تصر هذا الإصرار لأنها إنما تعيش أيضاً بحواسها المجردة، فما رأت وأحست واعتادت فهو الحق الذي لا حق وراءه، وما لم تر وتحس وتألف فهو الباطل الذي لا خلاف في بطلانه! فما بها إذن حاجة إلى تجربة أو موازنة أو تفكير أو حتى إختبار. فهي ثابتة قائمة مناهضة لكل من يريد لها الخير الذي لم تره. وهؤلاء هم الذين يقاومون الأديان والعلوم والإصلاح وكل جديد مفيد: فهم الذين يصرون على الشرك والوثنية لأنهما مألوفان، ويرفضون التوحيد لأنه جديد، وهم الذين يصرون على الجهل لأنه مألوف ويرفضون العلم لأنه جديد. ويصرون على الدمامة والقبح لأنهما مألوفان معروفان ويرفضون الجمال لأنه جديد، وعلى الظلم لأنه المألوف ويرفضون العدل لأنه جديد... وهكذا هم في كل جديد وقديم. وإن الحرب لم تزل مستعرة بين قديم هؤلاء وجديد المصلحين منذ كان الإنسان، وأعظم الناس في هذا هم الأنبياء ثم الأدنى فالأدنى على درجات متباعدة.

* * *

بعد كل هذا الذي تقدم نقول: إننا لا نرى مانعاً من أن نحكي آراء وحججاً يذكرها هؤلاء الذين صنعوا هذه الحضارة في موضوع المرأة وموضوع

الإختلاط والحجاب والسفور. ولسنا في حكايتنا لهذا ملتزمين القول والإيمان بكل ما فيه. وإنما نحن حاكون وعارضون لا غير. وحاكي الضلال ليس بضال إن كان في شيء مما نحكي ضلال. فليرح جماعة الأتقياء وأدعياء الأتقياء أنفسهم، وليمسكوا بعنان ثورتهم وغضبهم وورعهم، فما نحن غير ناقلين.

قال هؤلاء: إن أمامنا في هذه المسألة إحتمالين أو طريقين: أحدهما الزعم أنه يجب أن يحال بين الرجل والمرأة حيلولة شاملة بحيث لا يرى أحدهما الآخر أو يخالطه أو يشاركه في عمل من أعمال الحياة العامة. فالمرأة للبيت لا تغادره إلا إلى قبرها، والرجل للأعمال كلها خارج البيت، لا عدوان لأحدهما على الآخر. هذا إحتمال أو طريق.

والإحتمال الآخر أن يقال: كلا، فإن النساء شقائق الرجال، وإنهما سواء في هذه الحياة وفي القدرة عليها والحاجة إليها وفي أعمالها ومطالبها. وإن ما فيهما معاً من أعضاء وغرائز وميول متشابهة متساوية، ومن عقل وفكر وروح وحياة وتكوين عام لينادي بسقوط هذه الفروق المدعاة بينهما، وبألا يقضي على أحدهما بضد ما قضى به على الآخر، فإن ذلك تفريق بين متساويين متماثلين وهذا باطل في قانون العقل وقانون العدالة العامة بل وفي كل القوانين حتى في القوانين الطبيعية العمياء. ولو كان لأحد الجنسين عمل خاص به لا يصح أن يقوم به الجنس الآخر لفرق بينهما في الطبيعة العامة وفي الوظائف العضوية والروحية والفكرية والعاطفية، ولأعطى أحدهما من الأعضاء والغرائز والطباع والقوى الذهنية ما يناسب عمله فقط، ولحرم مما لا يناسبه، ولكن كلا، فإن هذا الفرق – أو التفريق – لم يوجد: لم يوجده الله تعالت قدرته. والتسوية بين الآلات مع إختلاف وتفاوت القصد بها والغرض والغاية منها لا يقع إلا من الجاهلين السفهاء. وما من شيء يمكن أن يقال إن الرجل يصلح له بطبعه إلا والمرأة تصلح له أيضاً بطبعها، وما من شيء يمكن أن تعجز عنه المرأة بطبعها إلا ويمكن أن يعجز عنه الرجل كذلك. فالذين يقولون بعد هذا كله: إنه محرم على المرأة ما أحل للرجل – بل ما أوجب عليه – يتهمون الله بالعبث والفوضى العملية والتشريعية.

إن للإحتمال الأول القائل: بدفن المرأة في منزلها حية لأضراراً كثيرة إجتماعية ونفسية وعقلية وصحية وخلقية أيضاً.

إنه لا بد أن تتزوج المرأة ويتزوج الرجل – أي لا بد أن يجتمعا بعد هذا

http://www.ithar.com

الإفتراق ويقترنا بعد هذا الإبتعاد المفروض، ولا بد أن تقوم بينهما المعاملة الفكرية والروحية واليدوية والقولية، ولا بد أن يكون أحدهما ملائماً للآخر عدلاً له منطبعاً به موافقاً مواتياً وإلا صارت الحياة بينهما مستحيلة أو بغيضة لا تحتمل. وإذا كانت هذه الأمور لا خلاف فيها بين الناس ولا خلاف في إشتراطها للحياة الزوجية الصحيحة فكيف يكون من الممكن الحصول عليها إذا كان أحدهما يجهل الآخر ويجهل طباعه الخاصة والعامة، ويجهل ميوله ويجهله كله ٨جهلاً عاماً، لأنه لم يتصل به ولم يره ولم يعرفه! !إنه حينئذ يدخل عالماً لا يدري منه شيئاً، فسيكون الإصطدام به هائلاً مستمراً، وسيكون التوافق بينهما مستحيلاً بعيداً، وستبني الحياة على أساس الجهل المطلق بها، وسيتهدم كل شيء من أركان هذي الحياة أو تظل خطراً دائماً قائماً فوق رأس الزوجين. لقد أكثر الفقهاء من الكلام على بيع المجهول – أو بيع الضرر – وذكروا أن ذلك مما يحرمه الدين، وأوردوا دلائلهم ونصوصهم. فالدين يحرم أن يشتري المرء شيئاً مجهولاً ببضعة قروش لأن مثل هذا الشراء مظنة للغش والخداع وعدم الرضا حين الإستلام والرؤية، ويوجب أن يكون المشتري معلوماً معروفاً، ثم يحل هذا الدين نفسه – على رأي قوم – أو على الأصح يحلون هم، بل يوجبون – أن يقدم المرء على ربط حياته ومصيره ومصير أولاده وكل ما يملك بامرأة يجعلها سيدة بيته المطلقة وسيدة ما فيه ومن فيه كل حياته أحياناً دون أن يدري من أمرها شيئاً سوى أنها امرأة؟؟ فأعجب لها من قضية لا شهود لها غير الجمود والجهل والتعصب الأعمى.

للمرأة حقيقة باطلة في ذهن الرجل وتصوره، وكذلك للرجل في ذهن المرأة وتصورها: فالمرأة مخالفة للرجل في جميع أخلاقه وطباعه وعاداته وميوله – هكذا يقول الرجل، لأنه هكذا يفهم: فهي غادرة ماكرة جاهلة جهلاً طبيعياً، شهوانية، لا ضمير ولا أمانة ولا عقل ولا فضيلة واحدة لديها، لا خلقية ولا روحية ولا عقلية... أما الرجل فهو على نقيض لها في هذه الأمور كلها. وكل ما يعرفه الرجل عنها أنها معين لا ينضب من الشهوة الجنسية الطاغية، وهي لا تصلح لشيء سواها ولا تتصور غيرها، ولا تطلب إلا إياها. وإذا أريد منها شيء آخر فذلك هو العبث والجهل... هذه هي صورة المرأة في ذهن الرجل وخياله. وهذا هو في رأيه وقوله فيها – وهكذا تضع المرأة أيضاً صورة الرجل وتطبعها

في ذهنها وخيالها: فهو مخلوق خصه الله بجناحين للطيران بهما من فنن إلى فنن ومن شجرة إلى أخرى لأكل ثمرها ثم تركها بل ثم إجتثائها واجتثاث أصولها: فهو لا يلتمس لدى المرأة سوى الشهوة البهيمية، وهو يتنقل ويطير وراء هذه الشهوة أينما تنقلت وطارت، وهو غادر لا يرعى عهداً ولا ذمة ولا ماضياً ولا إخلاصاً ولا خلقاً... فلتعامله المرأة على مقتضى هذه الحقيقة التي لونتها له وطبعتها في نفسها...

وها هنا – ومن أجل هذا كله – توجد خصومة حادة قديمة مستمرة بين الجنسين لا تهدأ ولا تخف: فكل منهما يريد إفتراس الآخر والإيقاع به قبل أن يصنع به خصمه ذلك، وكل منهما يواجه الآخر على هذا النحو من الخوف والحذر والريبة والتربص، وكل منهما يعمل على تعجيز الآخر وقهره وإضعافه... فما هي أسباب هذا؟ إنها هي بلا ريب جهل أحدهما بصاحبه. ولكن ما هي أسباب هذا الجهل؟ إن أسبابه – أو من أعظم أسبابه – هو ما يوجد بينهما من تباعد وعدم إختلاط حقيقي صريح من أجل الظن أن الإختلاط والتقارب يوقعان في الفساد والمنكر، إذ كل منهما يرى – على حسب ما لقن وورث – أنه يجب عليه أن ينأى عن الآخر وأن يخاف الإتصال به والقرب منه في الحياة العامة وفي كل مكان، وإذا حصل شيء من الإتصال واللقاء فإن التكلف والتصنع والتخفي والإستحياء المقصود يفسده ولا يبقى له فائدة ما.

إن الذين يعرفون المرأة معرفة صحيحة تامة ليتعجبون ويندهشون إذا قرأوا ما خطته أقلام الكاتبين من هذا الصنف عن خلائق المرأة وما تشتمل عليه من ميول وغرائز ليست إنسانية بالمرة، وإنهم ليعلمون أن تلك الأقلام إنما كانت تستمد مدادها من الجهل كل تلك العصور، وأن مآب هذه الأخطاء الشنعاء إلى أن هؤلاء الكاتبين والمؤلفين والشاعرين وغيرهم من الواصفين كانوا يصفون مخلوقاً لم يعرفوه لأنهم لم يروه ولم يخالطوه.

وقالوا: إن لوجود المرأة بين الرجال في حياتهم العامة في المصانع والمتاجر والمعاهد والنوادي والمستشفيات وسواها لفعلاً سحرياً: فهي تشيع النشاط الروحي والعقلي والقلبي أينما وجدت، وهي تلهب أجهزة الحياة وتبعث فيها الحرارة والحركة والقوة وتزيل عنها السأم والكسل والركود والجمود... والإنسانية – أفراداً وجماعات – إنما ترقى وتأخذ من الحياة والوجود والعلوم

http://www.ittar.com

كلها بقدر ما لديها من نشاط في الروح والعقل والقلب والحياة وبقدر ما تطرد عنها السأم والكآبة والركود والتبلد والميل العام إلى النوم في هذي القوى الأبدية. ولن تحيا أمة حياة صحيحة إلا إذ كانت مستيقظة نشيطة متوثبة تفيض سروراً وحركة وحرارة وحماسة في جميع قواها البدنية والروحية والعقلية... إن الحياة لتبدو كئيبة شوهاء، أحياناً كثيرة في أعين الكثيرين، فلا بد لها مما يجعلها ومما يجعلها حلوة مستساغة، ولا شيء في هذا الوجود يستطيع أن يعطيها ذلك مثل المرأة. إن الحياة لا تهب إلا بقدر ما توهب من الإخلاص، ولكن ذلك لن يكون إلا بقدر الحب لها، فيجب أن يكون حبها عند طالبيها ومريديها حباً صادقاً حاراً. والمرأة هي الكفيلة بأن تصير حبها هكذا... هذي حقائق لا ريب فيها كما أنه لا ريب في أن وجود المرأة بين الرجال يؤدي إلى هذا النشاط العام في هذه القوى العامة.

قالوا: وقد ثبت بالتجربة والإستقراء أن المصانع التي تؤلف بين الجنسين يكون إنتاجها أعظم من إنتاج المصانع التي يكون عمالها من أحد الجنسين فقط.

قالوا: وإن المدارس التي تجمع بين الطلبة والطالبات يجيء مستوى النشاط الذهني فيها أسمى بكثير من المستوى الآخر الذي يمثله أحد الفريقين فقط...

قالوا: وقد قامت البينة على أن وجود المرأة في المستشفيات بين المرضى والممرضين والأطباء أيضاً قوة لا تنكر، وأن الحياة في هذه المستشفيات تنشط جداً في الجميع: في الطبيب والمريض والممرض وفي كل شيء حتى الصحة والعافية تنشطان فيها وتسيران سيراً فيه قوة وفيه سرعة. وإنه من المستحيل أن تحصل هذه النتيجة في المستشفى الذي يضم الرجال فقط أو يضم النساء فحسب.

قالوا: وأما في ميادين القتال والبطولة فالأمر فيها لا يحتاج إلى تدليل: فهي تعطي القاتلين والزاحفين إلى الموت ما لا يوصف من الفتوة والصبر والإحتمال، بل والسرور في أحفل الساعات بالأحزان والأوجال، وهي تهبهم الإبتسام والإقدام، بدل العبوس والذعر والإحجام، وتخلق منهم رجالاً يسمون على المخاطر والمخاوف. ومما لا يحدث أن يقاتل الرجال المفردون المحرومون من هذه القوة وأن يصبروا في ميادينهم ويكونوا كما يجب.

قالوا: وإن الفروسية القديمة إنما وجدت وظهرت بدءاً بفعل المرأة وتأثيرها،

وإن الفارس إنما كان فارساً لأن المرأة كانت تراه وكان هو يريد أن يريها من صنيعه ومن نفسه ما يرضيها ويعجبها ويملأ جوانحها إحتراماً وإكباراً وحباً له وثقة به. ولهذا فإن الأمم القديمة كانت تخرج النساء في ميادين حروبها لتلهب الفرسان وتدفعهم إلى الوغي بقلوب لا تهاب. والعرب أنفسهم كانوا في جاهليتهم وفي إسلامهم أيضاً يرون هذا الرأي ويعرفون هذه الحقيقة ويحضرون النساء الشريفات وغير الشريفات مواطن قتالهم، وكثيراً ما كن ينشدن الأناشيد في تلك الأوقات يحمسن القاتلين ويبعثن في نفوسهم الجراءة والبسالة. هذا حسان بن ثابت شاعر الرسول الكريم يقول في إحدى قصائده:

تظل جيادنا متمطرات
تلطمهن بالخمر النساء

هذا معروف. وهكذا المرأة في كل شيء وفي كل فن من فنون الحياة.

قالوا: ولم يحدث أن عالماً أو أديباً أو شاعراً أو غير هؤلاء استطاع أن يكون شيئاً عظيماً إلا والمرأة من ورائه تدفعه وتلهمه وتلهبه وتعطي حياته الوقود والحرارة. ولهذا فإنه لم يقع في التاريخ قط أن أمة أبدعت في الحياة ونساؤها مقبورات في المنازل، مبعدات عن المجامع وعن الشؤون العامة: فأوروبا وأمريكا واليابان اليوم لم يبلغوا هذا الشأو البعيد في الصناعة والعلم وفي كل شيء إلا ونساؤهم من ورائهم وأمامهم وإلى جوارهم. وكذلك كان العرب والإغريق والرومان وكل الناس. فالمرأة هي القوة المحركة لقوى الحياة وقوى النبوغ في الرجل.

قالوا: وقد دلت التجارب أن تباعد الجنسين أحدهما عن الآخر يقضي بشدة التطلب: تطلب كل منهما لصاحبه وتلهفه عليه، وأننا كلما غالينا في الحجاب وفي التفرقة ازدادا هتكاً للحجاب على المخبوء المكنون، وتفكيراً فيه وفي الطريق الموصلة إليه، وإبداعاً وإبتداعاً في الموصلات المقربات، وأننا كلما تناسينا هذه الفروق بينهما وجمعناهما وأدنينا أحدهما من الآخر، فتعارفا وتلاقيا خفت شدة الطلب وهبطت حرارة الغريزة الدافعة الدافقة، وأصبح الإجتماع والإفتراق عاديين مألوفين، لا يحدثان عدواناً ولا مبارزة بين الغرائز المكبوتة المتأججة المتوهجة، ولا إحتراقاً ذاتياً داخلياً خطيراً – قالوا: وقد علم أن إعتياد الشيء يصيره إلفاً لا يجلب ضرراً ولا خطراً – وعلم أن الإنسان يكون أحرص

http://www.ithar.com

ما يكون على الممنوع المحرم البعيد، وأزهد ما يكون في المبذول المباح القريب، وأن هذه الغريزة الطاغية إنما يتجلى جبروتها المروع حين يكون ما تطلب مجهولاً محاطاً بالأسرار والألغاز، وأن ذلك كلما عرف وفهم تضاءل سلطانه وهان شأنه. والإنسانية محتاجة حاجة ظاهرة لأن تعمل – ما وسع العمل – على التخفيف من وطأة هذه الغريزة الشيطانية والحد من فعلها، لأن أكثر قوى الإنسانية ومواهبها ضائعة، منفقة فيها وفي ما يتصل بها وفي إضرام نيرانها. ولا شيء يستطيع القيام بهذا الغرض الجليل مثل ما ذكرنا – وهو محاولة إزالة الفروق بين الرجل والمرأة بمحاولة الجمع بينهما ما أستطيع إلى ذلك السبيل.

لقد كتب شيخ من شيوخ الإسلام المعروفين في كتاب له معروف منذ ثمانمائة سنة تقريباً يقول: لو كان لرجل من أهل بغداد نساء بغداد كلهن ثم جاءت امرأة من خراسان محجبة لا شتاق إليها ولظن أن تحت حجابها شيئاً ليس عند واحدة من النساء اللواتي في بيته وفي ملكه. وهذا صحيح وسببه الحجاب والبعد والجهل بهذه المطلوبة المشتهاة الخراسانية... إن الرجل ليترك زوجه البارعة الحسن ويذهب يتلمس من هن دونها في كل شيء من النساء القصيات الممنوعات المحرمات، والسبب هو ما ذكر أيضاً. وتجرد أحد الجنسين من ملابسه أمام الآخر مألوف في اليابان، وقد أضعف هذا جداً من قوى شيطان الشهوة المتبادلة.

قالوا: وقد علم علماً ليس بالظن أن الفساد الجنسي في البلاد الآخذة بالحجاب وبالتفرقة بين الجنسين أعظم جداً من الفساد في البلاد الأخرى الآخذة بالسفور وبالجمع بينهما، وعلم أن الحجاب والتفريق لم يستطيعا أن يقوما في سبيل هذه الغريزة العاتية المجتاحة المحتالة – وعلم أيضاً علماً تقرره المباحث النفسية الدقيقة أنه يكثر في الشعوب المحتجبة المفرقة بين رجالها ونسائها الشذوذ الجنسي، أو عشق الجنس لجنسه، ويقل جداً في الشعوب الأخرى الآخذة بغير ذلك. والإحصاءات كلها تثبت هذا. وعشق الجنس من أشنع ما تصاب به الأمم.

قالوا: وعلم أيضاً أن الحجاب والحرمان والحجر الخلقي يصيب الجنسين معاً بالعقد النفسية وبالإضطرابات العصبية التي يعز شفاؤها. وبدعة الزار إنما وجدت عند المحجبات القصيات المحرومات من غشيان المجتمعات، وهي لا

تعرف عند الأمم الأخرى ولا عند النساء البارزات المشاركات في إيجاد الحياة. ولا ريب في أن كثيراً من هذه الحالات النفسية التي يبتلي بها الكثيرون والكثيرات إنما مردها إلى هذا الحرمان الشنيع وإلى هذا الحجر الخلقي القاسي. وعلماء النفس والأطباء يعرفون اليوم ذلك جيداً.

قالوا: ولا معنى للريب في أن الإختلاط يهذب من أخلاق الفريقين ويرقق من شمائلهما ويسمو بهما مادياً ومعنوياً، ويحمل كلاً منهما على أن يظهر وأن يعتاد الظهور في أحسن الحالات وأجملها، وأن يشذب من عيوبه ويخفيها أو يطرحها وأن يروض نفسه على الأخذ بالكمال في الظاهر والباطن، في مخبره ومظهره. ولا شيء في قدرته حمل كل منهما بقوة على التجمل والتكمل مثل وضع أحدهما أمام الآخر وجهاً لوجه ومراقبة كل منهما لصاحبه. والجمال والكمال إنما يبلغان بتطلبهما، أي بالتجمل والتكمل.

قالوا: وإن من أعظم المسائل التي تجب عناية التربية بها مسألة إرتباك أحد الجنسين إزاء الآخر وإستحيائه منه وعجزه عن مواجهته مواجهة سليمة قوية ثابتة. فإن الإرتباك أو الحياء أو الإضطراب الذي يسيطر على موقف كل منهما من الآخر وعلى شعوره عقدة من أعظم العقد التي تؤدي إلى الخيبة والإخفاق في الحياة وعند مقابلة الأمور التي لا مفر من مقابلتها. ولا ريب في أن العلاج الصحيح الوحيد لرفع هذا الوهم القائم بينهما المتحكم في علاقاتهما هو التقريب بينهما وتناسي الفروق التي صنعها الوهم وغالى فيها الخيال المحروم المجدب.

قالوا: والجنسان إنما تصلحهما المعرفة، وتفسدهما الجهالة. ولا معرفة حقيقية مع الإنزواء والإبتعاد. فالمرأة التي تحرم من المجامع ومن الإتصال بالعالم الخارجي وبأهله من الرجال والنساء أيضاً كيف يمكن أن تكون لها معرفة نافعة؟ قد تكون أضعف وسيلة لهذه المعرفة هي القراءة المجردة والإكتفاء بالكتاب وبالدرس والمدرسة، وقد يكون أعظم وسيلة لذلك هو الإتصال بالعالم ولقاءه والأخذ عنه بدون وسيط. وإننا إذا فرضنا إنساناً ما قد أكب على كتبه في منزله وابتعد عن الحياة الخارجة وعن أهل هذي الحياة فلا محالة من أن نفرضه جاهلاً بأكثر ما تجب معرفته، عاجزاً عن مسايرة هذه الحياة ومعايشة أهلها متى خرج إليها وقضى عليه بهذه المسايرة وتلك المعايشة. فالجنس الذي يقول قوم إنه يجب أن يظل حياته كلها قصياً محرمة عليه المجامع والحياة الخارجة

http://www.ithar.com

الدائرة حول منزله أنى يمكن أن يكون له علم تجريبي صادق وعقل واسع ونافع ودراية هادية حقيقية؟

قالوا: وإن من شر ما تصنع الأمة بنفسها أن تتخلى عن أحد نصفيها وعن مواهبه وأن تفرض عليه البيت ما بقي حياً ليظل حليف الجهل والغباء والتصورات الرديئة الضارة والأوهام المختلفة التي يصنعها الفراغ المملول والإنطواء على النفس، والتي يخلقها الوقت المجدب المحروم من الحركتين: الفكرية والبدنية... إن الأمة لتضيق ذرعاً وفكراً ببضعة آلاف من أبنائها يعجزون عن أن يجدوا لهم في هذه الحياة عملاً، وترى أن ذلك من الأمور المخيفة الخليقة بالعناية والعلاج والإهتمام الصادق، فكيف بأمة – بل بأمم – تفرض هذا العجز على مئات الملايين من بناتها، زاعمة أنه لن تستقيم أخلاقها ولا حياتها ولن يقوم مجدها ودينها إلا بذلك؟

قالوا: ومن غير المستطاع أن توجد حياة صحيحة أو مجد أو علم أو ذكاء خارق عبقري إلا لدى من صحت أبدانهم ووهبت القوة والنماء الحقيقي، فهذه الصحة والقوة هما واهبتا هذه الأمور، بل إنهما أيضاً واهبتا صحة الأرواح... ولكن هذه الصحة لن يظفر بها من لزم البيت، ولم ينعم بالضياء والهواء، ولم يعمل أعضاءه إعمالاً صحيحاً منظماً يمنحها الإتساق والإنسجام والمرونة والقوة والحياة المتجددة... فالمرأة اللازمة للبيت لن تمنح هذه الصحة، ولن تمنح الجسم السليم القوي الحامل المثمر الأولاد الأقوياء الأذكياء، ولن توهب البدن الجميل الرائع، بل لا بد أن تكون مريضة عاجزة واهنة شوهاء المنظر والتركيب، ولا بد أن يجيء أولادها وأفكارها كذلك مرضى عاجزين مشوهين، فإن المريض العاجز الضعيف لا يعطي إلا مريضاً عاجزاً ضعيفاً مثله، ولا رجاء في مثل هذا الشعب: لا رجاء أن يكون شعباً عظيماً في ناحية من نواحي العظمة. فسلامة الأبدان وقوتها هي الشرط الأول لعظمة الأمم وإرتفاع مجدها. وقد لوحظ – بل ثبت ثبوتاً قاطعاً – أن النساء اللواتي استطعن الإفلات من هذا السجن القديم المخيف وانغمسن في الضياء والهواء – وأعطين أجسامهن الحركة والنشاط اللازم – لوحظ أن هؤلاء النساء قد جمل فيهم كل شيء: أجسامهن وأفكارهن وعقولهن وبل وأبناؤهن.

قالوا: ولا ندري ما هي الجريمة التي أتتها النساء البائسات حتى عوقبن من

أجلها بالسجن المؤبد: والسجون إنما فتحت وبنيت للمجرمين الذين يفعلون ما تحرم القوانين والشرائع. فإبداع النساء هذه السجون، ومعاقبتهن هذه العقوبة النكراء يجب أن يكون لها مادة قانونية أو وجه من الوجوه، وإلا فإنه يحسن – بل يلزم – أن تقام دعوى عامة من جانب النساء ضد الرجال الذين فرضوا عليها هذا العذاب والعقاب بدون ذنب جنته – كما لا ندري ما الذي أباح للرجال ما حرم على النساء: ما الذي أباح لهم الخروج والتصرف في الحياة والعمل تحت الشمس والهواء كما يشاؤون، وأباح لهم أن يعطوا أجسامهم ما تطلب وتشتهي من حرية وتنقل ودخول وخروج، وذهاب ومجيء: ما الذي أعطاهم حرية العمل المطلقة في البيت وخارج البيت، ثم حرم ذلك كله على المرأة وهي محتاجة إليه، مستفيدة منه، مستعدة له إحتياج الرجل وإستفادته وإستعداده؟ إن كل ما يمكن أن يذكر للإحتجاج به على وجه حرمان المرأة من هذا يمكن أن يذكر للإحتجاج به أيضاً على حرمان الرجل، وكل ما يذكر للتدليل به على جوازه للرجل يمكن أن يذكر للتدليل به على جوازه للمرأة بلا فرق. ومن المسلم به أن الخطر الذي يخشى من شرود المرأة وخروجها خطر مشترك لا يمكن أن يتصور ولا أن يتحقق إلا من الجانبين معاً: فلولا المرأة لما فسد الرجل ولولا الرجل لما فسدت المرأة... فإذا قيل إنه قد حرم الخروج على النساء والأختلاط بالرجال في مجرى الحياة خيفة أن يتصل بهن الرجال إتصالاً غير شريف، وخيفة أن يغرينهم ويفتنهم قيل: إن العكس صحيح وممكن أيضاً: أي بأن يحرم خروج الرجال من أجل هذا الإتصال وهذا الإفتتان. وكلاهما يصلح للداخل كما يصلح للخارج فما الفرق؟ يقول قوم: إن الرجل أقدر من المرأة على العمل والتفكير بدليل أن النساء لم يستطعن أن يساوين الرجال فيهما – أي في العمل والتفكير – في البلاد التي أطلقت لهن الحرية بأوسع معانيها... غير أنه من الممكن أن يقال: إن هذا غير صحيح: أما عجزهن عن هذي المساواة فهو راجع إلى عدة أمور: منها أنهن قريبات عهد بعصور الاستعباد والاذلال، فلا تزال سجون الماضي ذات آثار واضحة في مواهبهن وجميع قواهن، ولا يزلن حتى اليوم عاجزات عن التحرر من بقايا تلك العصور، وقد يحتجن إلى جهاد قد يكون طويلاً لإتمام هذا التحرر... ومنها أن الأمم كلها، حتى التي أعطت المرأة حريتها لم تقدر حتى اليوم على التخلص الصحيح من أوهام الماضي، فلا تزال المرأة والرجل معاً في هذه

http://www.ithar.com

الأمم يريان أن المرأة دون الرجل وأنه يجب أن تظل دونه – ولهذا فإنها لا تقوم بكل الأعمال التي يقوم بها الرجل. ولهذا – بلا شك – تأثير لا يقل عن تأثير قول الغربي للشرقي: إنك لا تصلح للحكم مع عمله على إبعاده وتنحيته عنه. ومنها أن المرأة والرجل لا يزالان – أو لا يزال جمهورهما – في الشعوب كافة يعتقدون أن أعظم عمل للمرأة في هذه الحياة أن تعد نفسها بشتى الأساليب لإغراء الرجل وجذبه إليها وإيقاعه في شرك حبها... فهي لذلك تصرف أكبر إهتمامها وتفكيرها ووقتها في صنع نفسها بحيث تصبح مطمح الأنظار وملتقى الشهوات. وهذا يشغلها عن الأعمال الجسيمة.

وينهض قوم آخرون ينادون بأن ما خصت به من وظائف الحمل والرضاع والحضانة يقوم مانعاً طبيعياً من هذه المساواة، فإنها وظائف مرهقة شاغلة... ولكن الطبيعة – الطبيعة التي طبعها الله – تدلنا على فساد هذا القول، فإنها ترينا أن الفرس والناقة وغيرهما من إناث الحيوانات لم تعجز عن القيام بالأعمال التي يقوم بها الحصان والجمل وغيرهما من ذكورها مع قيامها بهذه الوظائف... بل من الممكن القول بأن هذه الوظائف الطبيعية تقضي بأن يكون للمرأة أعمال فيها بعض الجهد والمشقة، وذلك لأنها في حاجة ظاهرة إلى القوة البدنية – ولا سيما أعضاؤها التي لها إتصال بهذي الوظائف والأعمال تقويها وتعدها لأن تكون قادرة شديدة الإحتمال. ومن غير الممكن أن يهمل عضو ويترك في الكسل الدائم والسكون المتواصل ثم يجيء صالحاً لما يراد منه قادراً عليه. وقد شوهد أن الريفيات وغيرهن، اللواتي يعانين الأعمال الشاقة أقدر على الحمل والولادة والرضاعة والحضانة من المنعمات المحبوسات في المنازل بدون حركة ولا عمل... فهي إذن من أجل ذلك أخلق من الرجل بالأعمال.

وقد يزعم زاعمون آخرون أن النساء يجب أن يلزمن البيوت لخدمتها وللقيام بشؤونها، لأنه لا يصلح للبيت ولا يصلحه سوى المرأة...

ولكن هذا خطأ أيضاً، لأننا نشاهد اليوم أن الطهاة وغيرهم من المختصين بخدمة المنازل والقيام عليها هم من الرجال دون النساء. وكل الأعمال التي قد يظن أنها من خصائص المرأة دون سواها ثبت أن الرجل يصلح لها ويصلحها...

يقول بعض علماء النفس: إنه من الخير والصواب ألا يميز بين الرجال والنساء في الزي ولا في العمل، لأن هذا التمييز يشعر كلاً منهما دائماً بأنه طالب

أو مطلوب، أو طالب مطلوب، وهذا الشعور يظل موقظاً أبداً للغريزة الجنسية، وهذا يشغل كلاً منهما ويرهقه ويحمله على الإحتيال وعلى القيام بعملية القنص... والإنسانية محتاجة جداً إلى تناسي هذه الأمور ما أمكنها ذلك.

وإذا كان هذا من الخير والصواب فمن الخير والصواب أيضاً ألا يميز بينهما بأن يكون أحدهما للبيت والآخر للأعمال خارج البيت؛ فإن هذا التمييز ينشط جداً في تنبيه الشهوة وفي الإغراء بالطلب. فإن المرأة التي تحجز في المنزل وتفهم أنها محجوزة لأنها في عين الرجل صيد مطلوب كلما رؤي ووجد وأمكن إصطياده تبقى دائماً متنبهة لهذا المعنى شاعرة به، مفكرة فيه. ولا يخفى على أحد ما لهذه الإحساسات من نتائج وآثار ومعان في نفسها... إذ كأن هاتفاً يهتف بها في أعماقها الخفية يقول لها: أنت مشتهاة مطلوبة، فهل تقبلين هذا الطلب، وهل تجيبين إلى مبادلة الشهوة بشهوة مثلها، وهلا تقومين بالتجربة؟ ما المانع من ذلك، ولماذا تحرمين على نفسك وعلى طالبك ومحبك أمراً شهياً لديك، هيناً عليك... وهكذا تدور في رأسها مئات التصورات من هذا القبيل... وكذلك الرجل الذي تبعد عنه المرأة ويفهم أنها إنما أبعدت عنه لأن فيها رغبته، ومعها مفتاح شهوته ولذته، ولأنه يحبها ويشتهيها، ولأنها كذلك تحبه وتشتهيه، وأنه من أجل هذا الحب وهذه الشهوة حيل بينهما... إلى آخر هذه الأفكار التي لا بد أن تتراكض في خياله، وتتأجج في أعصابه...

ومن المعلوم أن إتيان شيء ما لا يمكن أن يقع إلا بعد التفكير فيه: فالقتل والسرقة والزنا وغيره لا يحتمل أن يحدث لو لم يحدث التفكير فيه. فالتفكير سابق العمل. وإذا وقع التفكير فقد يقع العمل. فإذا فرقنا بين الرجال والنساء فلا محالة من حصول هذه الأفكار والخطرات. وما بعد التفكير إلا الخطر الحقيقي، وهو محاولة الوصول إلى المفكر فيه، وهو من ناحية أخرى عذاب المفكر إذا لم يدرك ما يفكر فيه، فهما خطران. ولهذا فإن مما يشبه المستحيل أن يجتمع رجل وامرأة – إذا كانا ممن لم يعتادوا الإختلاط – إلا وشغل كلاً منهما التفكير في الآخر. إن أساس كل شيء الفكرة.

لماذا لا يحاول الرجل أن يلتمس شهوته ولذته عند الأمهات والأخوات والبنات ويلتمسها عند النساء الأخريات الغريبات؟ السبب في ذلك أنه لا يفكر في الأوليات، لأن سلطان العرف يصرفه عن هذا التفكير – ولا نقول إن الذي يصرفه

http://www.ithar.com

عن ذلك هو التحريم أو الشرائع الدينية – لأن التشريع والتحريم لم يكونا في يوم من الأيام ما نعين من غشيان المحرمات. ولولا هذا العرف وهذا الصرف – أي لو أنه وجد مجالاً للتفكير – لما وجد فرقاً بين الأم والبنت والأخت وبين سواهن. فإن هذا الفرق ليس طبيعياً. ولو قدمت إلى رجل أخته أو أمه أو بنته بدون أن يعلم ذلك لينظر إليها نظرة إلى الغريبات الأجنبيات، ولو قدمت إليه الغريبات الأجنبيات على إعتبار أنهن إخواته أو بناته أو أمه فحسب ذلك صدقاً لنظر إليهن كما ينظر إلى الأخوات والبنات والأمهات الحقيقيات. فالمسألة إذن ليست طبيعية وإنما هي وليدة العرف والإعتياد. فعلينا إذن أن نجهد جهدنا على إبعاد هذا التفكير وعلى تناسيه. وهذا إنما يكون بمحو الفروق المتكلفة المكذوبة، وعلينا أن تقضي على فكرة الحيلولة بين الجنسين من أجل خيرهما معاً وخير الإنسانية أجمع.

قالوا: وإننا لسنا ممن يحاولون أن يحجبوا ضوء النهار بأكفهم، إذ لا ندعي أن الإختلاط مبرأ من العيوب والذنوب، ولا أنه ليست له عواقب قد تكون أليمة، كلا، فإن كل شيء في هذا الوجود – مهما كان حسناً جميلاً – لا بد أن توجد أحياناً في أعقابه وثناياه أضرار وشرور. وما من شيء يمكن أن يكون خالصاً وخيراً محضاً في أوله وآخره، ووسيلته ونتيجته، وبدايته ونهايته. وأعظم وأجمل ما في هذه الحياة – كالصحة والجمال والشباب والعلم والقوة والشجاعة – لم يخلص الخلاص كله، ولم يبرأ كل البراءة من الذنوب والعيوب والعواقب المؤسفة. فطلب هذا الخير المحض هو من طلب المحال، ومن ظن أن كل ما قد يحمل في طواياه ما ليس بالحسن وجب رفضه وإعتباره قبيحاً محرماً لزمه ألا يرى في الدنيا حسناً ولا جميلاً ولا مباحاً... أو ليس التلاقح نفسه – الذي هو أصل وجود الحياة ووجود الإنسان – قد يجلب شروراً وآلاماً ومفاسد ومظالم؟ بل إن كل ما في هذا الوجود من الجرائم البشرية إنما تسبب عن هذا التلاقح والتزاوج. فالخير إذن ليس هو الذي لا شر فيه، وكذلك الشر ليس هو الذي لا خير فيه. إذ هذا النوع من الخير والشر لا وجود له في عالم الواقع. وفعل الحكيم القادر المنزه عن كل نقص وعيب قد ترتب عليه وجود الأشقياء والسعداء، والمؤمنين والكافرين، والخير والشر، والجنة والنار، وكل ما نراه من المتضادات. ولكن يراد بالخير أو بالحسن ما غلب خيره شره، وحسنه قبحه، أو

ما غلب حسنه وخيره خير ضده وحسنه. ويراد بالشر ما غلب شره خيره وقبحه حسنه، أو ما غلب شره وقبحه قبح ضده وشره... فكل الأمور مأخوذة بالموازنة والمقارنة: فإذا وجدنا أمراً له وجهان وإحتمالان أو نتيجتان أحدهما ما يسمى خيراً وثانيهما ما يدعى شراً، وجب علينا أن ننظر أي الإحتمالين أو الوجهين أو النتيجتين أعظم، فإذا وجدنا الخير هو الأعظم قلنا إن هذا الأمر حسن وجميل، وإن وجدنا العكس قلنا بالعكس، وهكذا. والوجود كله قائم على هذه الحقيقة والإعتبار. وإذن فهذه المسألة التي هي إختلاط النساء بالرجال يجب أن يشملها هذا القانون. ومن غير المستطاع أن يقال إنها خير صرف أو شر صرف. بل فيها خير وفيها شر كما سبق. ومن شرها أنها قد توقع في الفساد الخلقي – ولا سيما في أول تجاربها وبداية الأخذ بها. وهذا ما لا ينكر. ولكن الخطر لا يتقي بالأبعاد والفرار منه، وإنما يتقي بالتعلم كيف يتقي وكيف يراض ويوجه إلى الخير والفائدة. وإلا فإن هذا العلاج يشبه الفرار من الطبيعة ومن ظواهرها ومن الوجود كله خيفة ضرره وأذاه. ومن حاول أن ينجو من خطر الفيضان الذي ترمي به الأنهار، ومن خطر الأمطار التي تجود بها السماء بالهرب والبعد عن المنطقة كان ممعناً في الجهل والغباء، وكان كمن حاول أن ينجو من مخازن البارود والقنابل وسائر المتفجرات بالفرار من المدن التي توجد فيها هذي المخازن، وكمن حاول النجاة من الفساد المرتقب من إجتماع الرجل والمرأة بالحيلولة والتفريق بينهما... والشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد وسيلة للنجاة مما تخاف وترهب إلا بالهرب: فهي تولي مذعورة جافلة من كل ظاهرة من ظواهر هذا الكون: من البروق والرعود والعواصف والقواصف والسيول والنيران والأمراض والوحوش والأعداء المغيرين، ومن اللصوص وغيرهم، ومن إختلاط النساء بالرجال، لا تجد حيلة سوى هذا. أما الشعوب والأفراد المتعلمون فإنهم لا يفرون أمام شيء من هذا، بل يقفون له ويروضونه ويصرفونه وفق المصلحة والفائدة كما تراض الوحوش العاتية. وهكذا يجب أن يكون علاج هذي القضية. ولا شك في أن محاولة حبس المرأة في دارها كل حياتها خشية الفساد تشبه شبهاً كبيراً أن يلزم الغلمان منازلهم، وأن يمنعوا الذهاب إلى المدارس، والإجتماع بالرجال وغشيان الأماكن العامة بحجة أن خروجهم ودخولهم المدارس ووجودهم في المواضع العامة قد يحدث منه أحياناً ضرر

http://www.ithar.com

خلقي! !بل إن إجتماع الرجال بالرجال والنساء بالنساء قد يحدث منه المؤامرات والغيبة والنميمة والإغراء والإغواء والتضليل وغير ذلك من أنواع الفساد الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض. فهل يمنع هذا الاختلاط بين الجنس وجنسه خيفة العاقبة المكروهة المرقوبة؟ وقد مر بالإنسانية زمان كانت تلجأ فيه إلى فعل أشياء تعد اليوم من أشنع ضروب الوحشية والهمجية. وكانت تفعل هذي الأشياء بسبب الحرص على الفضيلة وحراسة الأخلاق ودافع الغيرة على حسب ما ظنت وقالت... من ذلك عملية الخصاء التي كانت إلى عهد قريب جداً شائعة ومستحسنة. ولعل إلزام المرأة البيت للأسباب المذكورة لا يقل جهالة وسخفاً عن هذه العملية الوحشية الشنيعة للأسباب المذكورة أيضاً. والإسراف في التخوف من عواقب الأشياء المحتملة يوقع لا محالة في أشد ضروب الحرج والضيق، ويحمل على الحذر والإحجام عن كل شيء أو عن أشياء كثيرة لا ريب في فائدتها وحسنها ولزومها. فإن جميع الأمور – كما سبق – قد تحمل في طواياها وعواقبها بعض ما يكره، فهل يجتنب كل شيء من أجل هذا؟

هذا بعض ما لقناه ونقلناه عن الآخذين بالإختلاط الذين يقولون إنهم وجدوا نفعه. وعلينا نحن أن نقرأ ونفكر ونوازن.

وقد جعل الله الإمساك في البيوت عقوبة على الزنا في طور من أطوار التشريع: "واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً."

وهذا يدل على شيئين: أحدهما أنه لم يكن يمسك في البيوت من النساء إلا اللواتي يأتين هذه الفاحشة، وثانيهما أن الإمساك في البيوت ما هو إلا عقوبة على جريمة من الجرائم الكبرى. فمن عاقب هذه العقوبة بدون جريمتها كان من الظالمين في نظر الدين الإسلامي... وقد وصف الله النساء اللواتي سيختارهن أزواجاً لرسوله بالسياحة فقال: "عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات"... وأين السائحات من القاعدات في المنازل؟

وأما قولهم: إن المرأة إذا علمت نظرت إلى الرجل نظرة المساوى فتكبرت وطغت وأن مثل هذا خليق بأن يفسد الوداد والحياة بينهما. فقول لا صحة له أيضاً لأن العلم الصحيح الناضج يهذب الأخلاق ويشذبها ويمنع الغرور

والكبر. لأن الغرور والكبر إنما يصدران في الحقيقة عن الجهل بالنفس وعن الجهل بالعواقب والجهل بالقوانين الإجتماعية والخلقية والنفسية. لأن التكبر حينما تكبر إنما أراد بكبره أن يرفع من نفسه وقيمته وحقيقته ولم يرد أن يضعها. ولو كان عالماً متعلماً لعلم أن التكبر على الناس يصيبه بعكس ما أراد لنفسه. فإن من طلب من الناس أن يرفعوه خفضوه لا محالة! ومن حاول أن يفرض على الآخرين إحترامهم له لم ينل منهم إلا الإحتقال والإشمئزاز – ولو في الباطن – إن كانوا عاجزين عن أن يظهروا إحتقارهم وإشمئزازهم. وأما من تواضع وتودد إلى الناس وتجنب ما استطاع لمس شعورهم وإحساسهم بما يؤذي ولم يقابلهم إلا بما يرضون ويحبون فإنهم يحترمونه ويوقرونه في مشهده ومغيبه ظاهراً وباطناً... هذه مسألة نفسية خلقية إجتماعية لا شك فيها.

فالعلم إذن يهدي إلى التواضع وحسن الأدب، والجهل يهدي إلى الغرور وسوء الخلق. فالواقع خلاف ما ذكروا.

على أن هذا الإحتجاج إذا كان لدى هؤلاء القوم صحيحاً لزم أن يحرم التعليم على الرجل أيضاً لأنه من المستطاع أن يقال: إن الرجل إذا تعلم تكبر وشاه خلقه وأدبه وساءت معاملته ولقاؤه للناس مثل ما قالوا في المرأة المتعلمة. ولكن هذه كلها أوهام لا يسوغ أن تلقى في طريق الحقائق لو كانوا يعلمون.

* * *

وليعلم أنه لا يوجد حرف واحد صحيح في الدين ينهي عن تعليم المرأة ويأمر بتركها فريسة للجهل والغباء. بل الأوامر الدينية – روحها ونصوصها – كلها قواطع في وجوب تعليم الناس جميعاً رجالاً ونساء، وكلها قواطع في ذم الجهالة والغباوة سواء أكانتا صفتين في الرجل أم صفتين في المرأة.

وكلنا نعلم أن الدين بجملته بل الأديان كلها عبارة عن تعاليم وإرشادات وأوامر ونواه، وكلنا نعلم أن الدين موجه إلى الرجال والنساء وإلى الناس جميعاً. فالفريقان ملزمان مكلفان بعلمه وتعلمه. فهما ملزمان مكلفان بالتعلم وبتحصيل العلوم التي جاءت بها الأديان، وهي أنواع بل وهي تتناول إجمالاً كل علوم الإنسان. وقد كان الناس في زمن الرسول وزمن خلفائه متساوين رجالاً ونساء في طلب العلم وفي العلوم التي تطلب ويؤمر بطلبها. فما كان هناك علوم يعلمها الرجل دون المرأة، ولا كانت المرأة تؤمر بجهل شيء كان الرجل يؤمر بتعلمه، فلا

http://www.ithar.com

فرق من هذه الناحية. وكانوا – الرجال والنساء – يشتركون ويجتمعون في تلقي هذه العلوم وتعلمها من الرسول ومن غيره من الواعظين والمعلمين. وقد شكت النساء مرة إلى النبي الكريم وقلن: إن الرجال غلبونا عليك وزاحمونا فزحمونا فاجعل لنا من نفسك يا رسول الله أياماً معلومة فأجابهن إلى ذلك. وقد كان من نساء الرسول عالمات معلمات، ومن أشهرهن عائشة، وكذلك كان غيرهن من نساء المهاجرين والأنصار.

بل إننا نضع أمام القارىء البرهان الديني على وجوب أن تكون المرأة معلمة لا متعلمة فقط، أي على وجوب أن تعلم المرأة نفسها ثم على وجوب أن تعلم سواها من الرجال والنساء. وذلك قوله تعالى من سورة الأحزاب موجهاً الخطاب إلى أزواج الرسول: "وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله. إنما يريد الله أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً. واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة. إن الله كان لطيفاً خبيراً." فهذا أمر القرآن لزوجات الرسول بأن يذكرن الناس – أي يعلمنهم – ما يتلى في بيوت الرسول من الآيات ومن الأحاديث ومن الحكمة. وكم تحت لفظ الحكمة من المعاني والعلوم. فقد أمرن أمراً صريحاً ملزماً بأن يعلمن الناس كل المعارف الموجودة في بيوت النبوة – القرآن والحديث والأخلاق والآداب والتربية والسياسة والإجتماع وكل العلوم الإسلامية والعلوم التي جاء بها الرسول. وقد عملت هذه الزوجات وغيرهن من النساء المسلمات بهذا الأمر والإلزام، فكن معلمات مهذبات ومربيات وواعظات، وكان منهن خطيبات وأديبات ومؤرخات... فالمحرمون للتعليم عليهن محرومون لشيء ألزم به القرآن وكلف به تكليفاً.

لا ندري. كيف نقول ولا كيف نصرف الدلائل على وجوب التعليم والتعلم. وإننا نعلم أن الدين الإسلامي لن يهجى ولن ينال منه بأبلغ وأنكى من إتهامه بأنه ينهي عن تعليم المرأة ويأمر بإبقائها – وهي نصف الأمة الإسلامية أو أكثر – غبية جاهلة. وأي دين هذا الذي يمكن أن يجيء بمثل هذا؟

إن الإنسان – وسواء في ذلك الرجل والمرأة – ابن هذا الوجود، وأحد أجزائه ولبناته – وهو مضطر لأن يعيش فيه ويعايشه. وليس من الممكن أن يعيش فيه ومعه عيشة صحيحة مقبولة معقولة إلا إذا كان موضوعاً فيه وضعاً سليماً، وكان مؤتلفاً، وكان موجداً في مكانه اللائق به المناسب له، وكان آخذاً ومعطياً على

مقتضى الحكمة والصواب، وكان عارفاً بطباع وخصائص ما هو جزء منه وابن له، وعارفاً كيف يأخذه وكيف يتناوله وكيف يتصل به وكيف يعاشره ويعاشره... وهذا كله لن يكون ممكناً إلا لمن تعلم وعلم خصائص هذا الوجود وقوانين هذه الحياة بمن فيها وما فيها، عالماً قوانينها الطبيعية والأدبية والخلقية. ومعنى هذا تحصيل كل العلوم البشرية، وإلا فإن من حاول أن يتصل بشيء وأن يعاشره وهو لا يدري طبيعته ولا حقيقته ولا ما هو ولا كيف يؤخذ ولا كيف يترك هلك لا محالة. فالمرء الذي يوجد في هذا الوجود وهو جاهل به هلك وقاتل نفسه وهو يظن أنه يحييها، ومفسد لها ولغيرها وهو يظن أنه يصلح منه كمثل من يضع النفط على النار حاسباً أنه يطفئها بذلك كالماء، وكمثل من يتناول المركبات السامة ظاناً أنه يتناول أدوية... وهكذا. فالمرأة الجاهلة جهلاً مطلقاً بجميع المعارف العامة لا تصلح لشيء. ومن أراد منها أن ترعى له بيته وتربي أولاده تربية مرضية، وأن تؤلف بين نزعاتهم وأغراضهم وغرائزهم المختلفة المتباينة وبين حاجات أجسامهم وحاجات أرواحهم، وأن تؤلف لهم الأغذية النافعة وأن تفعل سوى ذلك، كان مثله كرجل طلب من هذه المرأة الجاهلة تقنية أن تؤلف كتاباً قيماً في الطبيعة أو في الكيمياء أو في الرياضة أو الفلك أو في الفلسفة أو في الشعر أو في الأدب أو الفنون الجميلة أو في الدين أو في أحد العلوم العليا... ومن تمنى هذه الأمنية كان مثله كمثل من طلب هذه الأغراض من الحيوانات والعجماوات! ومن صار هذا المصير كان خليقاً بالمرحمة والرثاء.

* * *

ليفكر هؤلاء المناصرون للجهالة، ولجهالة المرأة خاصة، في هذه الشعوب والأمم التي غلبتنا واغتصبت منا كل شيء، وفي مكان المرأة منها وفي المناصب التي تشغلها والأعمال التي تؤديها في الحرب وغيرها وفي كل الميادين – ليفكروا في إحدى هذه الأمم كالأمة البريطانية مثلاً، هل كان من الممكن أن تبلغ في تلك هذه الحرب وسواها هذا المكان الذي بلغته، وأن تظفر بما به ظفرت لو أنها فقدت هذا العنصر العجيب وفقدت وجوده في الميدان العام لجهله، ولأنه كان لا يستطيع أن يخرج من ظلمات البيت لأنه غير لائق به الخروج، لأنه غير متعلم، وغير صالح للعمل في الخارج – وهل كان من الممكن أن تجد هذه الأمة حينئذ من يسد هذا الجنس، ومن يقوم بالأعمال التي قام بها، ومن ينفث الروح التي تنفثها ومن

http://www.ithar.com

يشيع الحماسة والقوى المعنوية التي أشاعها، ومن يمنح الثقة والإطمئنان اللذين منحهما – وهل كان من المستطاع أن يصنع هذا أو شيئاً منه لو لم يكن قد أخذ النصيب الأوفر من الثقافة التعليمية؟ ثم هل كان في الإمكان أن يفعل الشعب العجائب والمعجزات، وأن يجعل العالم كله يرنو إليه ببصره إعجاباً وإكباراً لما يأتيه من ضروب البطولة لو كانت الزوجات والأمهات والأخوات والبنات جاهلات؟ إنهن حينئذ يكن بلا شك معاول هدامة يهدمن الرجال: الأزواج والأبناء والآباء والأخوة، ويهدمن فيهم كل بطولة، ويملأن نفوسهم جبناً وضعفاً وهلعاً ونقصاً دون أن يضعن فيها شيئاً من البطولة والشجاعة والقوة والكمال.

إنه لا خلاف بين طوائف الباحثين في أن الرجال إنما يلهمون أرواحهم ويوهبونها – أو كثيراً منها – في البيوت: أمام الزوجات والأمهات والأخوات والبنات ويصنعون هنالك. فإن كانت هؤلاء الملهمات لا يجدن في أرواحهن ولا في أنفسهن سوى الجهالة وما تولده الجهالة من خور العزيمة وسقوط الهمة وقصر النظر والخوف من كل مجد فلن يلهمن سوى ذلك، وسيأخذ رجالهن عنهن هذا كله أو جله... وإن كن متعلمات ممتلئات هِمماً وعزائم وآمالاً وحياة كان إلهامهن من هذا النوع، فكان صنعهن لرجالهن صنعاً عجيباً! فأي الإلهامين والصنعين يريد هؤلاء لأنفسهم ولأمتهم؟

إن كثيرين من أبطال التاريخ السياسيين والعسكريين وغيرهم إنما أوجدتهم نساؤهم، وإن كثيرين من أقطاب هذا العصر في أوروبا وأمريكا وغيرهما – ساسة وقواداً – إنما بلغوا ما بلغوا من ضخامة المجد وذهاب الصيت بتوجيه نسائهم وإرشادهن وتشجيعهن وعونهن، وإنهم ليعترفون بذلك بل يفاخرون به.

والأمم الراقية في هذا العصر تشترط في زوجات بعض رجالها الرسميين أن يكن بصفات معينة معلومة من الثقافة وسمو المدارك والأفكار.

ولو أن هؤلاء الرجال الذين فرضوا مجدهم وسلطانهم على الزمن، والذين قيل وقالوا: إن الفضل يرجع في كثير من ذلك إلى زوجاتهم لو يوفقوا إلى هذه النساء المثقفات المستنيرات، وسقطوا على نساء جاهلات غبيات، لما كان من المنتظر أن يصيروا إلى ما صاروا إليه، وأن ينالوا من الزمان ما نالوا! بل أليس من المنظور أو المقطوع به أن يغيرن مجرى تاريخهم وأن يوجدن منهم رجالاً آخرين؟

ومن المستحسن أن يقال لهؤلاء – ولا سيما المتدينين منهم أو من يزعمون متدينين: – إذا لم تعلم المرأة تعليماً كافياً لأن يوجد عندها ملكة علمية حقيقية تفهم بها حقائق الأمور فهماً عالياً صحيحاً، فهل من الممكن أن تصل إلى فهم حقائق الدين وفهم مراميه وأغراضه وأصوله العالية، وأن تبلغ منه الغاية المنشودة، وأن تعصم من الوقوع تحت سلطان المخرفين والخرافات، وتعصم من الدينونة للأوهام الدينية والبدع المنبوذة النكراء؟

إن الإنسانية تحمل في جوانبها وفي طيات وجودها جميع الخرافات والسخافات التي مرت بها في تاريخها الطويل، وفي تعاقب أجيالها الجاهلة... وإن سلطان هذه الخرافات والسخافات متمكن راسخ، وإن كل مولود يولد وهو يحمل معه جذورها وبذورها بين لفائفه ليستنبتها في بيئته... ولا يوجد شيء على إبادة هذه الجذور ويمنع نباتها وإستنباتها سوى التعليم العالي، وسوى العقل الذي يصنعه العلم.

لقد جرب التلقين اللفظي لمن لم يوهبوا الملكة العلمية – أي لمن لم يتعلموا حتى يملكوا هذه الملكة – فوجد غير مجد ولا نافع... إن كل تلقين – إن لم يكن للملقن ملكة ناضجة – لقليل الجدوى بل قد يكون ضاراً. أي إنه يشترط أولاً وجود المحل، والمحل هنا هو النضج الفكري والملكة الفكرية التي تكتسب بالتعليم.

حاول أن تشرح لإنسان غير متعلم نظرية فلسفية عالية، أو فكرة إجتماعية أو إقتصادية، أو مسألة علمية تحتاج في فهمها إلى مقدمات وإلى مبادىء أولية – أو حتى مسألة نحوية أو صرفية... وانظر هل يستطيع هذا الإنسان الذي لم يتعلم أن يفهم عنك وأن يدرك حقيقة الموضوع إدراكاً صحيحاً! وكذلك حاول أن تفهم إنساناً غير متعلم وغير مالك الملكة العلمية أصلاً من أصول الدين العليا كمسألة التوحيد مثلاً – أعني به التوحيد المبرأ من كل شائبة – وأسمعه ما شئت من النصوص القواطع والبراهين العقلية المقنعة! ثم انظر بعد هل يستطيع هذا الإنسان أن يدرك التوحيد وأن يؤمن به كما تريد وكما تحب، وهل يقدر أن يهضمه الهضم النافع، وأن يتكيف به التكيف المطلوب، وهل يصل إلى الحقيقة التوحيدية المطلقة المجردة؟ من المشاهد الواقع أن يقبل هذا التوحيد مبدئياً وأن يطيب به وأن يتخلص من بعض مظاهر الشرك وأن يأخذ بعض مظاهر التوحيد، بل كثيراً منها. ولكنه يبقى بعد ذلك يحمل جراثيم الشرك، ويحمل جذوره

http://www.ithar.com

وبذوره، بل يحمل كثيراً من صوره. وقد ينتقل من مظهر إلى مظهر ويترك صورة لصورة أخرى لأنه عاجز عن أن يخرج من جميع صوره ومظاهره لفقده الملكة الناضجة... وكذلك البدع، فإن من لم يتعلم تعلماً كافياً فلن يخلص منها مهما بذلت المحاولات والجهود، ومهما بولغ في التلقين والتحفيظ. وهذا كله مشاهد مجرب معلوم.

وكما أن الإنسان عند ملاحظته مشهداً كونياً أو ظاهرة طبيعية لا يبلغ من فهمه أو فهمها إلا بقدر ملكته العلمية والعقلية، فكذلك هو عند سماعه كلاماً ما في مسألة ما – أي إنه لا يأخذ مما يسمع ومما يرى إلا بقدر إستعداده. وقد كنت أتعجب دائماً من قول المتنبي:

ولكن تأخذ الآذان منه
على قدر القرائح والعلوم

يعني أن الآذان إنما تأخذ وتستفيد مما تسمع على قدر إستعداد عقلها وعلمها وعلى قدر ما بلغناه من نضج... ومن المستحيل أن تتخلص امرأة من جميع صور الشرك وضروبه، ومن جميع البدع والخرافات إذا كانت غير متعلمة. وقد لوحظ أن بعض النساء الجاهلات أو المتعلمات تعليماً ناقصاً قد تقبل ما يطلب إليها من توحيد ومن هجر للأوهام والخرافات، ولكنها تبقى مستعدة للرجوع ولمعاودة شركها القديم وأوهامها الأولى لأهون سبب وأضعف مناسبة.

كل هذا صحيح والسبب فيه – أو من الأسباب فيه – أن الخرافات والجهالات قديمة عريقة في الإنسان. وقد ورث من أجداده وآبائه في دمائه فهم كل شيء على غير وجهه وصوابه، فجاء الخطأ والضلال فيه موروثاً بل شبه طبيعي... وكما ورث عن أسلافه القدماء الأخلاق والطباع الوحشية المعتدية – كما يلاحظ على الأطفال وعلى الشعوب الهمجية، فإنه لا حد لظلمها وعدوانها ولا قانون له، كما ترى هذا في الأطفال إذا أعطوا حرية التصرف، فإنهم حينئذ يأتون بأقبح وأشنع أنواع الظلم والعدوان: يفعلون ذلك في الإنسان والحيوان وفي كل ما يقع في أيديهم – كذلك ورث أيضاً منهم الوهم في كل شيء والضلال في كل أمر: ورث الشرك وعبادة غير الله، وورث الأوهام في كل صلاته وإتصالاته بالله وبغيره. ولا علاج لنبذ هذه المواريث الثقيلة وللخلاص منها غير التعليم والتهذيب والتربية...

ومن أراد أن يخلص من الأوهام وأن يدرك الأمور على وجهها بدون تعليم وبدون ملكة عقلية تعليمية كان كمن أراد أن يكون رساماً أو خطاطاً من غير أن يكون له يد! ولقد أحسن الشاعر جداً في قوله:

فقر الجهول بلا عقل إلى أدب
فقر الحمار بلا رأس إلى رسن

يريد أن غير العاقل لا يمكن أن يكون أديباً ولا مؤدباً ولا فاهماً ولا مميزاً بين الحسن وغيره ولا مدركاً للحقائق كما هي، كما أن الحمار من غير رأس لا يمكن أن يكون له رسن ولا أن يقاد برسن.

فالشرط الأول لنجاة الأمم من خرافاتها هو التعليم العالي وإلا فإن الأمة ستظل ضحية للدجل والدجالين، وستبقى تحت دينونتها لكل ما هي فيه اليوم من هذه المفاسد الإعتقادية المخزية، وستبقى سوقاً عظيمة لصنوف المحتالين والمضللين... وما استطاعت أمة من الأمم أن تنجو من ذلك إلا بعد أن عظم نصيبها من المعارف.

ومن أجل هذا فلا ريب في وجوب تعلم الشعب كله رجاله ونسائه وجوباً دينياً، لأن أكبر أغراض الدين تخليص أهله من الجهالات الإعتقادية – من الشرك وأعراضه ومن فهم الحياة فهماً باطلاً، وقد علم أنه لا يستطاع الحصول على هذا الغرض الأعظم إلا بالعلم فكان العلم واجباً بحكم الدين.

والعلم في الحقيقة هو مانع السقوط ومانع الفساد الديني وغير الديني! إن كان في الإمكان منع هذا. وليسمع هؤلاء مثلاً واحداً: ماتا رجلان كانا يكسبان القوت يوماً فيوماً، فترك أحدهما وراءه جمعاً من النساء والبنات المتعلمات وترك الآخر جمعاً منهن جاهلات لا يدرين شيئاً في الحياة. وليس لإحدى المجموعتين كاسب ولا مورد للرزق بعد وفاة الرجلين. فما الذي حصل، أو ما الذي يمكن أن يحصل؟ أما المجموعة الأولى المتعلمة فإن تعليمها مكنها من أن تجد مكانها في الحياة، وأن ترى طريقها في النور. أما المجموعة الجاهلة فما الذي يمكن أن تصنع إذا لم ترزق أزواجاً صالحين؟ وهذا بعيد. ليفكر لهن أنصار الجهل وأعداء العلم وليقولوا بعد هذا إن شاؤوا: إن الدين يحرم التعليم على المرأة وينهي عن تعلمها الكتابة.

إن هنالك فرقاً عظيماً بين المتعلمة والجاهلة في كل شيء حتى في السقوط

http://www.ithar.com

الأدبي وفي الزلل الخلقي إذا قدر. فالمتعلمة إذا سقطت وزلت قدمها سقطت سقوطاً محتشماً محترماً – إن كان في هذا ما هو محترم محتشم – وزلت زللاً نصفياً أو جزئياً يرجى بعده القيام والنهوض والحياة. أما الجاهلة فإن سقوطها يكون سقوطاً جاهلاً، أي مدمراً مخرباً لا ينتظر بعده حياة ولا وجود ولا علاج.

* * *

من المحقق الذي لا خلاف فيه بين علماء النفس أن الجاهلة الساذجة التي فرغ رأسها من المعارف ومن التفكير الجدي، وفرغت أوقاتها من الأعمال الجسيمة المجدية، أقرب جداً من المتعلمة المثقفة ذات الأفكار والآمال إلى الركوع أمام سلطان الشهوات والغرائز الصغيرة. فالشهوات الجنسية تستبد جداً بالجاهلين الفارغين المنطوين على أنفسهم لجهلهم وضآلة تفكيرهم، وتنأى بقدر ما عن المتعلمين المفكرين، ذوي الطموح الإصلاحي الإنساني البعيد، وذوي الآمال العظيمة الجليلة التي يولدها العلم الواسع ويخلقها الخيال الممتاز الوثاب.

وذلك أن لكل إنسان قدراً معلوماً معيناً من القوى المادية والقوة الذهنية. وهذه القوى يتوزعها ويتنازعها فيه ميول وطبائع مختلفة كثيرة، كل من هذه الميول والطبائع يريد أن ينفق كل هذه القوى على حسابه وفي مصلحته. فمن الجائز أن تذهب القوى كلها في إرضاء غريزة واحدة كالغريزة الجنسية، ومن الجائز أن تذهب في غريزة حب الإطلاع فيكون المرء حينئذ بحاثة عالماً مشغولاً بالإستزادة من العلم والعرفان، ومن الجائز أن تنفق في غريزة الطموح. ومظاهر الطموح كثيرة متعددة، فقد يكون طموحاً إلى جمع المال والثراء الكثير، وقد يكون طموحاً إلى المجد السياسي أو المجد العسكري أو المجد الصناعي أو غيره من ضروب الأمجاد. وقد تبذل هذه القوى كلها أو جلها في ميول رياضية أو ميول إلى المغامرة والمخاطرة أو ميول أخرى، أحياناً تكون طيبة في نتيجتها، وأحياناً تكون غير ذلك... إلى غير هذا من الإتجاهات الإنسانية التي تصرف فيها قوى الإنسان الذهنية والجسدية كلها أو بعضها. ومن هنا اختلفت وتعددت وجوه الناس ومذاهبهم في الحياة على حسب هذا التوزع بين هذه الغرائز والميول. ومن المعلوم قطعاً أن للتوزع بين هذه الأشياء المسيطرة على الإنسان أسباباً وعوامل تكسب

وتدرك بالإجتهاد والتوجيه. فالإنسان – وكذا الإنسانة – الجاهل من المعروف أن مذاهب الطموح تضيق به وتسمو على تفكيره وتشرد عن خياله، ويعلم أنه أقل وأعجز عن أن ينصرف إليها وأن يرصد نفسه وقواه في سبيلها، فيتضاءل في نفسه وينطوي على قدره الصغير، أو ينطوي عليه قدره. فتبرز فيه حينئذ الغرائز والميول التافهة الضارة إذا تركت وطريقها – كالمسألة الجنسية – وتعصف به الأحقاد وعوامل الحسد الخبيثة والغيرة القاتلة من الآخرين، ويسيطر عليه التشاؤم والكآبة والكراهة والبغضاء، ويصبح ويمسي تتقسمه هذه الآفات النفسية، فينفق كل قواه البدنية والفكرية في الإتصال الجنسي خيالاً وعملاً، وفي الحقد والحسد والبغض والكره والتشاؤم والكآبة. فيقضي حياته كلها، ويبذل ما وهبه الخلاق في المعاصي والجرائم الدينية والقانونية والخلقية. فيكون نكبة على نفسه وعلى الأمة التي هو أحد أبنائها. والأمة التي يكثر فيها هذا النوع من الناس أمة مقضي عليها بالخيبة والهلاك وضآلة الشأن – وهي أمة متخاذلة متنابذة لا يرضى فيها أحد عن أحد مهما أحسن وأفاد ونفع.

أما المتعلم المثقف فإن آفاقه تتسع وآماله تتعاظم ويبصر سبيل المجد والطموح تتراءى له ممهودة مفتوحة، فينطلق فيها، فيشيد لنفسه ولقومه وللإنسانية قاطبة المجد الضخم، ويشغل بذلك عن تلك المعاني الأخرى الصغيرة، بل لا يجد لها وقتاً ولا مكاناً عنده. فينصرف عنها وتنصرف عنه. ويندر جداً خروج مثل هذا الإنسان عن القانون الطبيعي أو الإجتماعي أو الشرعي. وقد فهم أحد الشعراء – وهو الأخطل – هذه النظرية قديماً فقال يمدح أحد الخلفاء المشغولين بجسيمات الأمور هو وقومه:

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم
دون النساء ولو باتت بأطهار

وفي أوصاف الرسول الكريم أنه كان إذا دخلت العشر الأواخر من شهر رمضان شغل بالعبادة وانصرف إليها وشد المئزر – كناية عن مجانبة النساء وإعتزال المسألة الجنسية.

ومن المعلوم أن عظماء الأمم الذين توكل إليهم الأمور الجسيمة ينصرفون البتة – أو بعض الإنصراف – عن هذه المسألة، وقد ينسونها بحيث لا تخطر على بال أحدهم. وقد تمر أمام أحدهم أجمل مخلوقة تشيع الفتنة وتثير الخيال كما

http://www.ithar.com

يمر أمامه أحد الأشياء العادية.

ولا يلتفت إلى هذه المسألة إلا إهتمام المرضى والفارغين المعرضين عن رسالة الحياة. ومن هنا كان مسيئاً إلى مصلح الإنسانية عليه السلام من ذهبوا – وقائدهم الغباء – يجمعون الروايات المزعوم فيها أنه عليه السلام كان يعطي هذه المسألة – أي مسألة الوصال الجنسي – جانباً كبيراً من نفسه ووقته بل أعظم جانب، حتى إنهم ادعوا أنه كان يجامع في ليلة واحدة إحدى عشرة امرأة ثم يغتسل لذلك كله غسلاً واحداً بدون فاصل! وقد وهموا جداً في فهم حديث الطواف على نسائه، فالطواف غير الإتصال الذي يذهبون إليه.[1]

والذين وصفوا الرسول الكريم بهذا، وظنوا أنهم يمتدحونه به ويبالغون في وصف قواه البدنية بما قالوا، قوم كانت المسألة الجنسية أكبر شيء عندهم، وأكبر ما يشغل خيالهم لفراغهم وضآلة رسالتهم في الوجود وقلة طموحهم وإهتمامهم بمسائل الإنسان الكبرى. ومن ثم حاولوا وصف الرسول بما أحبوا أن يوصفوا به وبما به اهتموا وله عظموا. ولو أن أحد الرجال – أرباب الرسالات الكبرى والآمال الجسيمة – أراد أن يصف النبي الكريم المبعوث لهداية الناس ولبعث العرب ولإيجاد دولتهم الفتية الغالبة لما خطر على باله أن يصفه بالإنصراف إلى هذه المسألة، ولما قبل ذلك البتة، لأنه هو غير منصرف إليها ولا معني بها. والعادة أن الواصفين يحاولون أبداً أن يصفوا من يحبون ومن يريدون إظهار مزاياهم بما حسبوه مدحاً وثناء وإن كان في الواقع غير ذلك، وقد يصفونهم بما يحبون أن يوصفوا هم به.

ولكن الرسول الكريم أعظم جداً وأسمى مما توهموا وظنوا ومدحوا. ولن يستطيع وصفه إلا من قرب منه ومن سمت نفسه ومعانيه بحيث صار ببصره عليه السلام متألقاً في سماواته، مجللاً بكمالاته.

وليس هذا الذي نقوله شعراً ولا خيالاً وإنما هو حقيقة يقررها علم النفس

(١) ومن خطرات الهوس الجنسي ما زعمه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري مستدلاً بروايات لفقها من أنه عليه السلام قد أعطى في الجماع وفي شهوة الجماع قوة أربعة آلاف رجل! ويروي ابن سعد في الطبقات وغير ابن سعد أن جبريل نزل على الرسول بقدر فيها طعام فأكل منه فأعطي هذه المقدرة على الجماع. ويشير كلام ابن حجر إلى أن قوة الأربعة الآلاف التي أعطيها ليست في الجماع فقط بل فيه وفي الأكل والشرب والشهوة! ويراجع كتاب الغسل في فتح الباري شرح صحيح البخاري.

ويضمن صحتها الواقع والمشاهدة الأولية البسيطة. وعلم النفس يسمي هذا التوزيع بين الغرائز بالطريقة التي ذكرناها (التصعيد.)

أن مقداراً معيناً من الفحم مثلاً تكمن فيه طاقة معينة أيضاً، يمكن أن تكون حرارة، وأن تكون ضوءاً، وأن تكون حركة، وأن تحرق وتدفىء وتهدي، ويمكن غير ذلك، وكذلك القوة البدنية والعقلية الموجودة في الإنسان يمكن أن تصرف في الفساد والدمار، ويمكن أن توجه إلى الإصلاح والتعمير والبناء – وهكذا كل قوة في الحياة وهكذا كل قوة مادية. ولا سبيل إلى هذا غير التسامي، ولا تسامي حقيقي عند الجاهلين. وعلى هذا فلن ينتظر من المرأة الجاهلة – وكذا الرجل الجاهل – سوى الإستغراق في الخيالات الجنسية، وسوى التطلع الملهوف إليها، وسوى الإنصراف إلى الأحقاد والحسد والغيرة المشقية وكل تلك المعاني الحقيرة الذميمة التي تملأ أوقات الجاهلين وأفكارهم – وسوى الإنقطاع إلى فن الدسائس للأزواج والأقارب والآخرين أيضاً – وسوى الذهاب مع الخيالات والخرافات بلا رجعة.

فإذا أردنا أن نعمل على تجنيب المرأة هذه المهاوي إلى حد ما وبقدر ما وجب علينا تمكينها من الأخذ بأوفر نصيب من المعرفة بل وجب علينا دفعها إلى ذلك دفعاً... فتعليمها إذن يقربها من الله ويجنبها معاصيه، وجهلها ينأى بها ويطوح بها مع الهالكين في كل واد من أودية الهلاك.

والمسألة الجنسية هي كسواها من المسائل التي يأتيها الإنسان والتي تتصل به، يصلحها العلم ويفسدها الجهل. فما من غريزة ولا طبيعة ولا عمل يعمله المرء إلا وهو محتاج إلى العلم وإلى هيمنته عليه ليقيه التخبط والزلل والخروج عن الطريق. وما من شيء من ذلك ترك لطبيعته بدون أن يرعاه العلم وتحرسه المعرفة إلا كان مبيداً مدمراً، وما من شيء قام عليه هذا الحارس الأمين وخفره خفارة صحيحة إلا جاء أدنى إلى الإستقامة والكمال وأبعد عن التهور والتهوك والضلال.

والناس كلهم – حتى العوام والهمج – إنما يتعايشون بالمعرفة والعلم والآداب التي يتوارثونها جيلاً بعد جيل والتي يتلقونها بطرق التلقين المعروفة. أما لو تركوا ونزعاتهم دون أن يأخذوا عن البيئة وعن البيت وعن المدرسة علومها وأخلاقها وتقاليدها وتربيتها وقوانينها القائمة على التعليم – سواء أكانت

http://www.ithar.com

تعاليم صحيحة أم كانت باطلة – لكانوا وحوشاً ضارية بل لكانوا شراً من الوحوش بأعمالهم وأحقادهم وغرائزهم المتفجرة بالجبروت، ولما أمكن أن يتعايشوا تعايشاً يبقي على العمران ويرعى القوانين، ولظلوا كذلك إلى أن تنهض العقول من جديد فتضع التعاليم والقوانين والأخلاق والآداب والتقاليد... ولا ريب في أن الإنسانية لو تخلت عن هذا كله لكانت مضحكة في كل أعمالها ولكان إملاء الغريزة الجنسية عليها متحللاً من كل قيد أدبي أو خلقي، ولارتفع هذا البرقع الشفاف الذي يجلل هذه الميول والنزعات بشيء من الحياة والإعتدال والقصد.

فالعلم إذن هو المهذب المنظم لأعمال الإنسان وغرائزه، وكلما عظم سلطان هذا المهذب المنظم عظم التهذيب والتنظيم، وكلما ضعف هذا ضعف ذاك. فالمرأة والرجل محتاجان إلى العلم بكل ألوانه وضروبه لئلا يضلا في متاهات الغرائز إحتياجاً يجب ألا يكون فيه خلاف إلا إذا صح أن يزعم أن هناك عملاً من أعمال الإنسان يصلح بدون العلم ويستغني عنه.

والغرائز البشرية لا يصلحها الردع والكبت وإنما يصلحها التصريف والتنفيس. وكل شيء يكون منطلقاً مندفعاً أمام طبيعته يراد وقفه بالضبط والردع دون التصريف والتنفيس يحدث ضرراً محققاً. قف في وجه قذيفة منطلقة وانظر ماذا يكون! أو حاول أن تقيم حاجزاً في طريق ماء جار جارف لا ينقطع بدون أن توجد له منصرفاً آخر وانظر ماذا يكون! اقصد إلى غريزة جنسية ملتهبة مندفعة إلى غايتها واعمل على منعها بالضغط لا بالتوجيه والتوزيع والعلاج ثم اسأل علماء النفس ما الذي يمكن أن يكون! إنهم ينبئونك أنه لا بد أن يحدث حينئذ إما أمراض جسيمة أو أمراض عصبية أو نفسية أو خلقية خبيثة، أو غير ذلك من الأضرار المحققة... فإذا كان الذين يأبون تعليم المرأة إنما حملهم على هذا الإباء هو خشيتهم غوايتها وإنطلاقها مع داعي الغرائز وتصريفها إياها تصريفاً ضاراً سيئاً فليعلموا أنهم واهمون أكبر وهم، وليعلموا ثانياً أن الخوف يجب أن يكون من الجهل والغباء اللذين يقضيان على المرء بأن ينطوي على نفسه وأن يعجز عن السير في غير سبيل النزعات البدائية الأولية المدمرة. فالعلم وإتساع أفق المعرفة هو الكفيل بتنظيم هذه النزعات وتوجيهها الجهات الحسنة النافعة على حسب إرشاد علم النفس. وهو الكفيل

بالتسامي بها وإستخدامها في أحاسن الأشياء وأجداها على الهيئة الإجتماعية.

* * *

من الضروري أن نسأل هؤلاء: ما هي وظيفة المرأة وما مكانها الطبيعي الذي يجب أن يضعها فيه إستعدادها وأعمالها المطلوبة منها والذي تضعها فيه الشرائع؟ أهي لا تعدو أن تكون أرض إخصاب وموضع بذر ثم لا شيء بعد ذلك؟ أم إنها يجب أن تكون مخلوقاً مفكراً عاقلاً فاعلاً بالإرادة والإختيار؟ أما الإحتمال الأول فلا يمكن القول به ولا الذهاب إليه. وأما الثاني فهو الذي لا بد من المصير إليه. وإذا كان ذلك كذلك فهل من المستطاع أن تؤدي هذه الوظيفة وهي جاهلة؟ قد يقال إن من الممكن أن يعهد إلى جاهل جهلاً مطلقاً بكل شيء بإستنبات نباتات غريبة ويعهد إليه بزراعتها واختيار الأرض لها وحمايتها من جميع الآفات، ومقاومة هذه الآفات إذا نزلت بها، والعلم بها إذا حدثت، وتقديم ما يلزم لها من الماء ومن المقويات المخصبات، وبالقيام عليها قياماً صحيحاً كفيلاً بإستنباتها على أحسن وجه وأكمله – نعم قد يقول جاهل بإمكان هذا ولكن هذا الجاهل لا يمكنه أن يدعي أن من المستطاع أن تقوم امرأة جاهلة على تكوين أولادها قياماً صحيحاً كفيلاً بأن يكونوا كما يجب أو قريباً مما يجب. وذلك أن النبات إذا كان محتاجاً إلى رعاية شيء واحد فيه، وهو الجانب المادي، فإن الأطفال محتاجون إلى رعاية جوانب كثيرة فيهم أحدها الجانب المادي، وهو أبدانهم وبناؤها بناء قوياً وتكوينها تكويناً سليماً. وأبدان الأطفال تحتاج في بنائها وتكوينها إلى أكثر جداً مما يحتاجه النبات لأنها معقدة أكثر منه، ولأن هندستها أدق من هندسته، ولأن فيها من العدد والآلات أعظم مما فيه. والفرق بينهما ليس أقل من الفرق بين بارجة حديثة وسفينة شراعية بدائية. هذا من الناحية المادية فقط وهي الأجسام – دع الأرواح والأخلاق والتقاليد والنزعات والعقول وكل ما يمتاز به الإنسان عن النباتات. فهل يقول إنسان إن المرأة الجاهلة تستطيع أن ترعى جانباً واحداً من هذه الجوانب رعاية صحيحة وأن تقوم عليه قياماً صحيحاً يقربه من النجاح وهل هناك جناية إجتماعية قانونية أكبر من أن يترك الأطفال ضحايا بريئة في أيدي الجاهلات؟ الأميات: يدمرن أجسامهم وأخلاقهم وعقولهم وكل شيء فيهم، وينمين فيهم الميول الأولية والخرافات الموروثة عن عصور الإنسان الأولى الجاهلة، ويبعثن فيهم الضعف

http://www.ithar.com

والخور والأوهام والفساد الإعتقادي والعقلي العام، ويصنفهم بقوالبهن المعنوية والمادية الملتوية المشوشة ويخلقن في خيالاتهم العوالم والأشباح والأرواح التي لا وجود لها!؟

ماذا تصنع هذه الجاهلة في حالة واحدة من حالات الحياة تواجهها وتفرض عليها حلها ومواجهتها فرضاً! ليفكر هؤلاء في هذا تفكيراً عميقاً ولينظروا كيف يكون الجواب!

إننا نعتقد بحق أن الإسلام دين خالد عام، فهل من الممكن أن يكون كذلك إذا كان يحرم تعليم المرأة ويقضي عليها بالجهالة الأبدية.

ونحن حينما نذكر العلم نريد العلم الناضج لا الناقص، فإن هذا العلم النصفي أو الجزئي قد يكون عاجزاً عن أن يوصل إلى الأغراض المنشودة من التعليم، بل قد يكون صاحبه شراً من الجاهل أحياناً.

ولسنا بعد هذا في حاجة إلى التوكيد بأن كل الروايات الذامة لنوع من أنواع العلم أو الناهية عند روايات باطلة مكذوبة. فجميع الروايات الواردة في أول هذا البحث كذب، ورواية النهي عن إنزال النساء الغرف وعن تعليمهن الكتابة هي رواية – على رغم تصحيح بعض الرواة لها – منكرة. وكذلك الرواية التي فيها إنكار علي بن أبي طالب تعليمها الكتابة، وكذلك جميع الروايات السابقة.

ولهؤلاء الناس الذين فرضوا علينا وفرضت علينا إمامتهم آراء عجيبة، وفروق لا يؤيدها شيء من مراجع الحقيقة يذكرونها بين الرجل والمرأة: في التعليم وفي الكتابة وفي غيرهما، مثل ما ذكروه في البخل والشجاعة والعي والفصاحة. فقد زعموا أن الفصاحة والشجاعة والكرم صفات محمودة في الرجل مذمومة في المرأة، وزعموا أن نقائضها محمودة في المرأة مذمومة في الرجل! وهذا هراء كله. فإن المحمود في الرجل محمود في المرأة، والمذموم فيها مذموم فيه. فهذه الأمور المذكورة هي محمودة في الرجل والمرأة معاً، ونقائضها مذمومة فيهما.

وقد تصاغ هذه الحجة بالأسلوب الآتي: هل العلم خير وفضيلة، أم شر ورذيلة، فإن كان الحق هو الأول فلماذا يحرم على المرأة، وإن كان الحق هو الثاني فلماذا يباح للرجل؟ ولا جواب عن هذا.

وليس من شك في أن من يقدمون لأمتهم نساء جاهلات: بنات وأخوات

وقريبات ليسوا بأقل إثماً ممن يقدمون إليها الشرور والمفاسد الخلقية والجرائم الشرعية – كلا بل إن الشرور والمفاسد والآثام هي بعض أفعال النساء الجاهلات.

وإننا نعلم أن الأجيال ستتعجب وتسخر منا إن قدر لها أن تقرأ أو تعلم خلافنا في هذه المسألة ومحاولتنا التدليل على جواز أحد الجانبين منها، والتدليل على بيان فضيلة العلم وبيان جواز أخذه والإتصاف به، ونقول: أفي مثل هذا يختلف المختلفون ويتنازع المتنازعون، ويحتاجون إلى حشد الحجج والبراهين! !ولكن لا عتب ولا لوم! فلولا سير الماضين في طرقهم المظلمة أكثر الأحيان المضيئة أقلها – ولولا تعثرهم – ولولا تنازعهم وخلافهم في ما هو من الضرورات المسلمة اليوم – بل ردهم وإنكارهم لذلك – لما استطاع إنسان هذا العصر أن يسير في طريقه التي يسير فيها.

http://www.ithar.com

كراهة الحياة الدنيا: إمتداح الجوع والفقر والمرض

الدعاية الواسعة للزهد المخدر، هل جاء الدين لمحاربة العمران؟

اللهم من آمن بي وصدقني وعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء، ومن لم يؤمن بي ولم يصدقني ولم يعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره.

«زعموه حديثاً نبوياً صحيحاً»

نزل على جبريل بأحسن ما كان يأتيني صورة فقال إن السلام يقرئك السلام يا محمد ويقول إني أوحيت إلى الدنيا أن تمرري وتنكدي وتضيقي وتشددي على أوليائي حتى يحبوا لقائي... وتوسعي وتسهلي وتطيبي لأعدائي حتى يكرهوا لقائي فإني جعلتها سجناً لأوليائي وجنة لأعدائي.

«زعموه أيضاً حديثاً نبوياً»

جاء رجل فقال يا رسول الله إني لأحبك، فقال انظر ما تقول! فقال والله إني لأحبك ثلاث مرات، فقال إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافاً فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه. وعن أنس قال جاء رجل إلى النبي فقال إني أحبك فقال استعد للفاقة. وفي حديث آخر: اصبر أبا سعيد فإن الفقر إلى من يحبني منكم أسرع من السيل من أعلى الوادي ومن أعلى الجبل إلى أسفله.

«زعموا أحاديث نبوية»

* * *

كانت العرب في جاهليتهم – ولا سيما قريش – تنظر إلى الحياة الدنيا بعين المتشوق المتيم، وكانوا يحبون المال حباً جماً ويأكلون التراث أكلاً لما، كما أخبر القرآن عنهم، وكانوا يحبون الطيبات ويستمتعون بكل ما استطاعوا الإستمتاع به منها، وكانوا يفاخرون ويكاثرون بذلك، كما كانوا يمقتون الفقر والفاقة وكل ألوان الشقاء، والعوز ويرونها من النقائص والعيوب والعجز كالبخل والجبن وفقدان المروؤة. ومن أمثالهم السائرة في هذا (القبر ولا الفقر.) وكانوا من أجل هذه الروح المالية الدنيوية الإستمتاعية تجاراً كلهم، ولا سيما أشرافهم

وساداتهم. وكانوا يعظمون من شأن التجارة كل التعظيم ويرون المهارة فيها والحذق والقدرة برهان الرجولة ودليل الشرف وعنوان السيادة. وفي دلائل النبوة: (كانت قريش قوماً تجاراً ومن لم يكن تاجراً فليس عندهم بشيء)، حتى لقد قيل إن كلمة قريش معناها التاجر.

ومن أعظم الدلائل على شأن التجارة عند قريش وشأن المال في أنفسهم أن أم المؤمنين خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله – وهي في مكان عظيم من المجد وشرف البيت والأرومة في قومها – كانت في حياة أبيها خويلد تتاجر وتستأجر الرجال من قومها ليقوموا على تجارتها في الشام وغيرها. وكان قومها ينظرون إليها من أجل هذا نظرات الإعجاب والإجلال، ويتمنى كثيرون من ساداتهم أن يظفروا بها زوجاً. وقد استأجرت محمداً عليه السلام وعمره خمس وعشرون سنة للخروج بتجاراتها قبل زواجه بها. فلما رأت من نجاحه عليه السلام، ورأت تضاعف أرباحه وأرباحها أحبته حباً شديداً ثم رغبت في الزواج منه. وقد سافر به عليه السلام – وهو غلام صغير – عمه أبو طالب إلى الشام ليروضه على أساليب التجارة، وليحبب إليه الرحلات والأسفار في سبيلها، وليمرنه على الكسب وعلى الإتجاه نحو الثراء.

ومن الدلائل على تمكن هذه الروح فيهم – أي روح الإحتيال على الكسب والمال – أنه عليه السلام في طفولته قد أجر نفسه لقريش ليرعى لهم أغنامهم. حدث بهذا عن نفسه الزكية وقال: (ما من نبي إلا رعى الغنم) قالوا له وأنت يا رسول الله قال: (وأنا، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة.)

وقد كان لأهل مكة رحلات سنوية إلى الشام واليمن وإلى جهات أخرى متاجرين مصدرين وموردين: كانوا يجمعون حاصلات بلاد العرب وتجاراتها فيحملونها إلى الشام والبلاد الأخرى فيبيعونها هناك، رابحين أرباحاً طائلة مغرية، ثم يرجعون بحاصلات الشام وبما في الشام من ألوان التجارات وألوان العروض المطلوبة في الحجاز وفي أنحاء البلاد العربية فيبيعونها على أهل الحجاز وعلى غيرهم من أهل الجزيرة، ويخرجون بالأثمان الطيبة الكثيرة... فكانت مكة بذلك محطة تجارية هائلة بالنسبة لذلك العهد، وكانت ملتقى الصادرات والواردات من بلاد العرب وإليها. وكان لهذه الرحلات ولهذا التصدير والتوريد ولهذا الوضع شأن عظيم في نفوس القرشيين ونفوس العرب

http://www.ithar.com

أجمعين... وكانت قريش ترى أن هذه الحالة إحدى فضائلها وخصائصها التي امتازت بها وفضلت بها من أجل البيت ومن أجل سدانتها له.

ولا أدل على منزلة هذه الرحلات التجارية من أن الله أنزل في شأنها سورة كاملة تدعى سورة قريش وهي قوله تعالى "لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" أي إن هذه الرحلات في الشتاء وفي الصيف من النعم العظمى التي تستوجب الشكر وتستوجب عبادة من وفق إليها ومن هيأ الأسباب لها وهو رب هذا البيت الذي كان لوجوده في هذه البطحاء وفي هذا الوادي الأجرد الضيق فضل كبير، بل الفضل كله في إنماء هذه التجارات وتنظيم تلك الرحلات. وقد أطعمهم بها من الجوع، فكان الناس من حولهم يجوعون وهم آمنون من هذا المرض الإجتماعي المخيف لمكانتهم التجارية الممتازة، وآمنهم من خوف الكساد وخوف الفقر والفاقة وسائر ألوان الخوف لأنهم كانوا أقوياء وأغنياء، والأقوياء والأغنياء يكونون دائماً مرهوبين محروسين لأنهم يستطيعون بقوتهم المالية – والمال مصدر القوات – أن ينالوا ممن يحاولون الإعتداء والبغي عليهم. فكانوا في ضمان وأمان من هذه الناحية... بل كان الناس في الجزيرة وغيرها ينظرون إليهم بأبصار ملأى بالإحترام والحب والغبطة الظاهرة، وقد يشوب هذا شيء كثير من الحسد الذي ينشأ عادة من وجود الإمتياز والتفوق في أحد الأمور. وقد عرضت هذه الحالة التي كان أهل مكة بها يتمتعون في قوله: "ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون."

ومما يشهد شهادة ظاهرة لحب القوم التجارة ما حكاه الله عنهم قاصاً موقفاً من مواقفهم الدالة على أنهم يذهبون كل مذهب في هذا الحب، وذلك قوله تعالى من سورة الجمعة: "وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً" وذلك أن الرسول عليه السلام كان يخطب أصحابه يوماً خطبة الجمعة فقدمت إلى المدينة قافلة تحمل تجارات مختلفة فعلموا بها فخرجوا إليها وتركوا الرسول يخطب ولم يبق معه إلا القليل، وجاء في الرواية أن الذين بقوا معه كانوا اثني عشر رجلاً.

ولما أثنى الله في الكتاب على جماعة من المؤمنين أثنى عليهم بأن التجارة

والبيع لم يلهياهم عن الله وعن الصلاة فقال "رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله." ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من الدلائل على حبهم البيع والتجارة والمال.

وقد كانوا يعتقدون – وهكذا يعتقد كل جماعة صبغت بالروح التجارية – أن الكسب والقدرة عليه والحذق فيه برهان النبوغ والعبقرية والذكاء والسيادة. وكانوا يرون ما حكى الله في كتابه عنهم "ولئن أذقناه رحمة من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي" وقال "ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم"... إلى آيات أخرى في هذا المعنى... يريدون بهذا أن الغنى إنما ينال الغنى بعلمه وذكائه واستحقاقه لصفاته الذاتية. وهذا غير ما يراه الكسالى والعاجزون من أن المسألة لا تعدو أن تكون حظوظاً عمياء. وما من عبارة تبلغ مبلغ هذه الآيات في مدح القادرين على الكسب وذم العاجزين عنه: "ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً. هل يستوون؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون. وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم." والله إنما يخاطب القوم ويحتج عليهم ويضرب لهم الأمثال بما استقر في نفوسهم وبما عرفوه وصدقوه.

وقد أراد الله أن يعدد مناً امتن بها على رسوله فعد منها منة الغنى بعد الفقر كما عد منة الهداية بعد الضلالة ومنة الإيواء بعد اليتم والشتات فقال: "ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى." فالإمتنان بالغنى قرن بالإمتنان بالهدى. وأي برهان يساوي هذا في أن العرب كانوا ينظرون إلى الغنى وتحصيل المال مثل ما ينظرون إلى سائر الكمالات كالصحة والكرم والشجاعة والنبل والمروءة والعلم وغيرها، وأنهم كانوا ينظرون إلى الفقر مثل نظرهم إلى سائر العيوب والنقائص كالمرض والعجز والضعف والجبن والبخل والدناءة والجهالة والضلالة وسواها. ولا ريب في صدق هذه النظرات، فإن الغنى المكسوب يدل على صدق الذكاء وصدق الإرادة وصدق التصرف في الحياة وعلى النشاط والدأب وعلى حب الجمال. وهذه كلها كمالات إنسانية... أما الفقر فإنه يدل على نقيض هذه الشمائل: على الغباء وضعف الإرادة والعجز عن التصرف وعلى الكسل والهوان والرضا بالقبح... وهذه جمعاء من شر الخلال. والثراء

http://www.ittar.com

المكسوب مما يدخل تحت الطاقة الإنسانية بدليل أن من يعملون له بقوة وصدق وذكاء ينالونه. فمن عجز عنه ورضي بالفاقة واستسلم لها كان معنى هذا أنه قد فرط في إستخدام قواه القادرة رغبة منه في الكسل وركوناً إلى الضعف. ومن كان كذلك كان حرياً بالملامة.

وقد كانوا يرون أن من الدلائل على قرب الإنسان من الله وجدارته بحمل رسالته أن يكون غنياً مفرط الغنى، وأن تكون له كنوز وجنات تجري من تحتها الأنهار وتتفجر خلالها النيابيع كما كانوا يرون من جهة أخرى أن الفقير السيء الحال ليس خليقاً بأن يكون نبياً ولا أن يؤمن به الناس ويتبعوه... وقد حكى الله عنهم قولهم: "وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها"... "وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً – إلى قوله – أو يكون لك بيت من زخرف..."... وهذا خلاف رأي الزاهدين القانعين... ولا غرو أن يقتحم شعب – هذا رأيه وقوله – سدود الحياة، وأن يلبي من دعاه إليها بذلك العزم الذي تناثرت أمام وثباته العروش... وحب الحياة وحب طيباتها أساس كل نشاط وإبداع ونبوغ... وقد كانت قريش – من أجل هذا وغيره – في مدينتها المقدسة، في تلك الأيام الجاهلية – يوم أن كانت ترى في الحياة هذي الآراء – منعمة متفضلة على زوار مدينتها، لقدرتها المالية ونشاطها الإقتصادي، فكانت تطعم الحجيج وتسقيهم وتؤويهم بدون أن تتقاضى منهم أجراً، بل كان أشرافها يتنافسون على ذلك، وكان الفائز بإطعامهم يعد فائزاً بسنام المجد وضئضىء الشرف.

ومن المصائب أن الناس هنالك لما أن تغيرت أفكارهم ونظراتهم إلى الحياة وآمنوا بالزهد والقناعة صاروا هم ينتظرون حياتهم من الحجاج، وأصبحوا في مكان المنعم المتفضل عليه بعد أن كانوا في مقام المنعمين المتفضلين! فلننظر كيف تهبط الأفكار بالأمم وكيف تصعد بها!

ومن براهين منزلة المال في نفوسهم أيضاً أنهم كانوا يتعجبون – بل ينكرون – أن يهتدي الفقراء ويضل الأغنياء لأنهم كانوا يعتقدون أن الغنى لا بد أن يكون ألمع ذهناً وأقدر على معرفة الحق وأعظم كرامة على الله من الفقير بدليل نجاحه في الدنيا. فلو كان عقله وتفكيره دون عقل الفقير ودون تفكيره – ولو كانت أيضاً

منزلته عند الله دون منزلته لما أمكن أن يخص بالثراء، لأن الثراء إما أن يكون بالحيلة أو بالفضيلة، وعلى الإحتمالين معاً فالغني الوجيه أولى بمعرفة الهدى! ومن قولهم – كما حكى القرآن: "لو كان خيراً ما سبقونا إليه."...

ومن حديث القرآن عنهم أن التكاثر بالأموال والأولاد قد ألهاهم وشغلهم حتى زاروا المقابر، أي حتى ماتوا كما في قوله: "ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر."

وكما في آيات أخرى معروفة. ومعنى هذا أن الحياة قد شغلت وجودهم كله وملأته بأسباب طلبها.

وقد كان حب الجمال دائماً هو مبدأ حب الحياة – ومن الممكن أن يقال على نحو آخر إن حب الحياة بداية حب الجمال – فأنت صادق إن قلت: أحب الجمال فأحب الحياة أو قلت: أحب الحياة فأحب الجمال... وقد بلغ العرب – أيام الجاهلية – في حب الجمال مبلغاً جعلهم يكادون يصيرونه – أي الجمال – ويصيرون التغني به موضوع شعرهم وأدبهم وخيالهم المشبوب ومنطقهم الدفاق... ونحن لو جمعنا كل ما خلفوه من شعر وأدب وقصص ثم قسمناه أقساماً لوجدنا أن ما قالوه في الجمال وحده وفي أوصاف الجميل الجسدية والروحية أضعاف ما قالوه في كل مواضيع الحياة الأخرى... وقد كانت المرأة عندهم – وهي كذلك عند الأمم كلها – مجلى هذا الجمال ورمزه ومبعثه وصورته البارعة الفاتنة، فأكثروا من القول فيها وفي أوصافها وأوصاف أجزائها، ولم يجدوا غضاضة – لا سوقتهم ولا أشرافهم – في ذلك، بل لم يجدوا غضاضة في أن يتقدم أحدهم ليمدح ملكاً من الملوك فيبدأ مديحه بالمرأة وبجمالها ومحاسنها الظاهرة والباطنة، بل اتفقوا – المادح والممدوح – على أن ذلك هو ما يجب أن يصنع حتى قالوا في هذا: "إذا كان مدح فالنسيب مقدم." وقد أبدعوا كل الإبداع – أو أغرقوا أجمل الإغراق – في تحديد صفات الجميل المادية والمعنوية، وأنجدهم في إبداعهم وإغراقهم خيال وثاب، فسموا بالحب والمحبوب بل والمحب سمواً لا يزال حتى اليوم – وقد يبقى الأبد كله كذلك – فوق المتناول. فألهبوا خيال أمتهم، وحلقوا بها فوق كل سماء وكل وجود، وطافوا بها في عوالم كلها النور والبهجة والسرور. فكان هذا كله إعداداً لها لأن تثب وثبتها التاريخية الكبرى، يدفعها ذلك الخيال المشبوب المرهف، وذلك التصور للجمال الذي أبدعوه وابتدعوه. وشعر العرب خليق من أجل ما ذكر بأن يسمى شعر

http://www.ithar.com

الجمال... وقد ثبت في تاريخ كل الأمم التي أوجدت التاريخ أنها كانت تذهب هذا المذهب في حب الجمال وتصوره – على درجات متفاوتة – فالمصريون والهنود والإغريق والرومان والعرب – وكذلك الغربيون اليوم – كانوا هكذا. وقد يدلنا على هذي الحقيقة ما تركته لنا هذه الأمم من آثار وبنايات ورسوم وتماثيل وأشعار وآداب – كما ثبت من جهة أخرى أن الأمم التي لا تكون كذلك تعجز عن أن تبدع في الحياة وعن أن توجد لها بين سطور التاريخ حديثاً يقرأ فيشوق. ومن الواجب أن نعتقد أن الأمم أجمع إنما هي صنع خيالها، وأن خيالها إنما هو هبة رجالها الذين استطاعوا أن يسبقوها في التصور والتصوير وأن يحدوا لها على أنغام المثل العليا. فإن الأمة تتخيل فتفكر ثم تعمل.

ولكن كل أسلوب وكل كلام في محاولة التدليل على فضل المال وفضل القدرة على كسبه عند العرب لا يبلغ مبلغ هذين المثلين اللذين تثبتهما هنا: أحدهما ما جاء في حديث بدء الوحي، وذلك أن الرسول عليه السلام لما أن تجلى له الملك أول ما تجلى وأمره بالقراءة ونزل عليه ببعض القرآن رجع إلى زوجه خديجة مذعوراً وهو يقول (زملوني زملوني) ثم قص عليها الخبر وقال لها (لقد خشيت على نفسي) فقالت له خديجة: كلا والله لا يخزيك الله أبداً – وفي رواية لا يحزنك الله أبداً – إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. والمثل الثاني أن أذى المشركين حينما ألح على المسلمين خرج أبو بكر قاصداً الهجرة كما خرج غيره فلقيه أحد أشراف قريش وهو في طريقه مهاجراً، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي. فقال له ذلك الشريف المشترك: إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج. إنك تكسب المعدوم وتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. فأنا لك جار.

والشاهد في الروايتين قوله (تكسب المعدوم) أي تكسب الشيء الذي لا يستطيع سواك أن يكسبه لبعد مناله، ولأن كسبه يحتاج إلى وسائل قوية وأعمال بارعة حاذقة وأساليب هي القوة والمهارة، وإلى نفس متوثبة طموح... وهذا يساوي أن يقال (كلا والله لا يخزيك الله، إنك لرجل تاجر ماهر)، وأن يقال (إن مثلك لا يخرج ولا يخرجه الناس لأنك رجل تفوق الرجال جميعاً في القدرة على كسب المال وعلى النجاح في التجارات) وهذا آية في أن قريشاً كانت ترى القدرة

على كسب المال وعلى الثراء الممتاز من فضائل الرجال النادرة المعدودة.

وقد ألهمت هذه الروح عمرو بن العاص قولته المشهورة: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً) ذكرها عنه الجاحظ في كتاب البخلاء – وقد رويت حديثاً أيضاً. ويعني بذلك أن الواجب على العاقل أن يدأب في طلب الدنيا دأب من يظن أنه لن يموت وأن حاجاته ومآربه لن تموت ولن تنتهي. ومعنى هذا بذل كل ما في طوق القوة العقلية والبدنية رجاء الظفر بأثمن ما في هذا الوجود من جمال. ومثل هذا القول لن يوجد إلا لدى أمة استطاعت أن تفهم الحياة وأن تستمتع بها إستمتاعاً بريئاً من العقد النفسية ومن العلل الإجتماعية، ومن العقائد الصوفية الزهدية... وقد تلفتت المنافسة اليهودية العنيفة إلى هذا المجتمع الإقتصادي، فلم تر لأقدامها هناك موضعاً، فرجعت مشيحة بوجهها تتلمس الأماكن الضعيفة في الجبهة التجارية العالمية، فوثبت على المدينة المنورة وعلى ما حولها من القرى والواحات، فأنشأت لها ثمة مراكز عديدة حصينة لأن أهل المدينة كان وجههم وإهتمامهم إلى الزراعة دون التجارة. أما مكة، وقد كانت أعظم سوق تجارية في البلاد العربية كلها، فقد كانت بمنجاة من هذا الخصم الشديد المنافسة القوي الضغط على من يحاول مجاراته ومناوأته. وهذا لأن القرشيين كانت لديهم حينذاك مناعة إقتصادية تفوقت على البراعة اليهودية. ومثل هذا يقل أن يوجد في شعب من الشعوب مهما علا شأنه وسمت روحه المالية، لأن اليهودي قد استطاع بمهارته وبأساليبه التجارية الرائعة الخفية المدارك والمسالك أن يهاجم المعاقل الأوروبية والأمريكية وأن ينال منها ما يريد – هجوماً ودفاعاً – وحسبك بالأوروبي والأمريكي منافساً.

وقد يطيب للقارىء هنا أن يسأل: ما السر في تمتع قريش ومن معهم بهذه الروح الإقتصادية القوية، وما العوامل الحقيقية العاملة على تنميتها وعلى حفظها من الإنهيار والدمار وقد يطيب لنا نحن أن نحاول الجواب على هذا السؤال فنقول:

إن الشعوب والأمم لها دائماً حالتان: حالة طبيعية سليمة، وحالة أخرى تتواثب وتتوافر عليها الأمراض الإجتماعية والنفسية والإعتقادية... أما الشعوب والأمم التي تكون في الحالة الأولى، أي الحالة الطبيعية فإنها تنظر إلى الحياة نظرات صحيحة سليمة وتتناولها تناولاً صحيحاً سليماً، وتأخذ بها

http://www.ithar.com

أخذاً صحيحاً سليماً... وهذه النظرات والتناول والإستمتاع توجب أن تتناول الحياة بأجمل وأحسن صورها وبأبرع وأقوى احتمالاتها وتقلباتها. لأن الحياة لها جوانب مريضة وجوانب أخرى سليمة – أي جوانب عادية طبيعية وجوانب أخرى تكيفها الأمراض والأسقام. والشعوب السليمة أو القريبة من السلامة إنما تقبل من الحياة جانبها السليم ووجهها المشرق الباسم. أما المريض فإنها ترفضه وتنكره بقوة مزاجها وتفكيرها وصحتها لأنه غريب عن طبيعتها... وأما الشعوب التي تكون في الحالة الثانية – أي حالة الإعتلال والإنحلال – فإنها تحرم هذه النظرات الصحيحة للحياة وهذا التناول والإستمتاع الصحيحين السليمين... وحينئذ تصوغ فلسفتها النظرية والعملية أيضاً صياغة فاسدة، فتهب تنشد الفقر والمرض والجوع والذل والموت الإجتماعي وكل ضروب الشقاء بكلامها وأعمالها، كالذي حدث عند كثير من الأمم الشرقية وعند المسلمين في عصور إنحلالهم.

وقد كان العرب – ولا سيما قريش – متمتعين بالحالة الأولى أو القريب منها – وهذا مقصود به جانب التفكير والفهم للحياة لأن الجوانب الأخرى كانوا فيها كغيرهم مرضى. والسبب في نجاة العرب في هذا الوجه من وجوه الحياة أن أسباب فساد النظر إلى الوجود تتلخص في أمور: منها الحرمان والفاقة الناشئة من فساد الحكم وظلمه وطغيانه. ومنها الظلم الأدبي الذي ينصب على الشعوب بغزارة باسم الدين أو على حساب النظم الإجتماعية أو التقاليد البالية الجائرة. ومنها الإضطرابات التصورية التي تتولد في العادة عن حالات خاصة تصيب المجتمع المضطرب وتصيب أهله بألوان كثيرة من الشذوذ. ومنها شيوع المذاهب الفلسفية والدينية المختلة. ومنها جور الطبيعة الجغرافية – أي بأن تكون طبيعة البلاد غير مستقرة ولا ثابتة ولا مأمونة المفاجآت. فإن مثل هذه الطبيعة توحي إلى أهلها بالكثير من الأفكار التي لا تكون في العادة عادية ولا سليمة من ناحية التصور والتصوير إلا إذا كان أهل مثل هذه الطبيعة قد اجتازوا جميع مراحل الطفولة الإنسانية وبلغوا سن النضج والإستواء... والكائنات الحية بل والجامدة هي بلا ريب أبناء طبيعتها والأبناء على رغم كل خلاف في سنن الوراثة وقانونها لا بد من أن يأخذوا من آبائهم شيئاً بل أشياء. ومنها غير ذلك مما يمليه الظلم أو فقد العلم، مما يجعل النظر إلى الحياة نظراً غير صحيح وغير سليم.

والعرب كانوا في جاهليتهم وفي جزيرتهم بعيدين عن جميع **هذه الأسباب**، فكانوا ينظرون إلى الأشياء بعين الصحيح السوي في تفكيره وعقيدته **وغريزته**، فكانوا يستمتعون بها بكل الأساليب إستمتاع من عداه المرض بكل **اشكاله** وصوره: بحياته وقواه.

هكذا كان العرب في جزيرتهم وجاهليتهم بينما كان العالم كله شرقيه وغربيه تنوء كواهله الواهنة المحطمة بالمذاهب الصوفية، وبالآراء الباطلة الفلسفية، وبالتقاليد والقوانين المستبدة وبكل ما يوهي ويوهن... حالة لو أن أحد علماء النفس والإجتماع التفت إليها بعين علمه لرأى العرب في جزيرتهم بين الأمم يشبهون واحة خصبة خضراء، وسط صحارى لا حدود لها جدباء. وهذا كما لا يخفى إذا استطاع ألا تخدعه المظاهر المزيفة، ولا السمعة القديمة المكذوبة، ولا السلطان الواسع المهلهل، ولا الضعف المجلل بالدعايات، ولا غير ذلك مما يصرف عن الحقائق.

مما يجب أن يلاحظ هنا – ولا أدري ألاحظه أحد أم لا – أن الأمم حول جزيرة العرب كانت إذ ذاك تتلوى تحت أعباء الملكية المستبدة الطاغية التي كانت تأخذ كل شيء من الشعب ثم لا تعطيه شيئاً. ولكن العرب قد استطاعوا بأخلاقهم العجيبة الأبية وبتربيتهم التي لم يمسها الذل المميت أن يرتفعوا فوق هذا النظام وأن ينجوا منه ويأبوه. فلم تستطع الملكية – وكل الملكيات في تلك العهود ملكيات طغيان واستبداد – أن تجد لها بينهم مكاناً. وقد عد المؤرخون الجاهلون الذين تولوا الكتابة والتأليف عن العرب وأحوال العرب هذا من دلائل إنحطاطهم وطبعهم على الفوضى وبغض النظام. غير أن علماء النفس والإجتماع لا يشكون اليوم – لو سئلوا – في أنه من براهين سموهم وسمو تربيتهم وتحليقهم فوق ما يجلب الهون والإستعباد. وقد رأينا الأمم في العصر الحديث لما أن بلغت الرشد الخلقي والقانوني والإجتماعي – أو كادت – تعصف بتلك الملكيات الجائرة، وتنطلق بسرعة وشغف إلى النظام الجمهوري. ولم تبق من الملكيات إلا ما كان إسمياً فقط، وما يجرد الملوك من الملك، وما يسلبهم كل سلطة سوى سلطة الموافقة والتوقيع. وقد عد هذا من حسنات العصر الحديث وفضائله وتسامي عقله. وقد أبى الرسول الكريم وخلفاؤه الأولون أن يكونوا ملوكاً، وما استطاع العرب أن يصبحوا ملوكاً حقيقيين إلا في دمشق وبغداد والقاهرة وغيرها من

http://www.ithar.com

العواصم خارج بلاد العرب. وقد أشار الله إلى هذه الفكرة بقوله: "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة. وكذلك يفعلون" فالملوك إذن كانوا يفسدون، وكانوا يذلون الأعزاء. وهذا ما يأباه العرب وما يرفضونه. ومن هنا جانبوا النظام الملكي.

ومن رأى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية، ورأى ترفعه على أخلاق الملوك وعلى كبريائهم، وشاهد تواضعه وقربه من الشعب وقرب الشعب منه علم كيف تنأى أخلاق العرب - جبلة وطبعاً - عن جبروت الملوك وعن مراسيمهم التقليدية المعقدة التي تزرع الأحقاد والعداوات في الصدور - وعلم أنها عند العرب إمامة أصدق منها ملكية. وقد قيل إن بين العرب وبين الإنجليز توافقاً في الأخلاق، ولو قيل إن أظهر دليل على هذا هو نظام الملكية عند الأمتين وتجردها من الطغيان والإستبداد وإختصاصها بالحب المشترك المتبادل بين الشعب والملك ورفع التكلف، لكان قولاً صادقاً. ومن حضر مجلساً من مجالس جلالة الملك عبد العزيز آل سعود آمن بصدق هذا كله.

وليس بعث محمد صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية لمجرد الصدفة أو لمجرد الإختصاص أو حب الإختصاص الذي لا سبب له، أو بمجرد القضاء والقدر اللذين يتصورهما العامة وأشباههم من الخاصة، أو لنسب وانسجام بين القدرة الإلهية وبين هذه الجزيرة وأهلها. كلا لا شيء من ذلك. ولكنها الشمس إنما تشرق في مكانها وأوانها، والنجوم إنما تدور في مداراتها وتطلع في أوقاتها. الله أعلم حيث يجعل رسالته. وهذه قضية في حكم البدهيات عند علماء الإجتماع لا يختلفون فيها وإنما يختلفون في أسبابها وعللها. ولو أن العرب لم يكونوا كذلك لما استطاعوا أن يحملوا هذه الرسالة ولا أن يقوموا بحقها لو أنها فرضت عليهم فرضاً.

والنهضات والقيادات الدينية تشبه من وجوه كثيرة النهضات والقيادات السياسية من حيث وجوب التهيؤ والإستعداد والصلاحية لها. ولن يبعث الله رسالته إلى أمة فاقدة لعناصر النهوض والإستعداد للنهوض بها، كما أنه لن يسود شعباً على الشعوب وهو أقل منها علماً وعقلاً وأخلاقاً وصفات بل ولا وهو مثلها. بل لا بد من الإمتياز ليكون سبباً للسيادة ومقتضياً للتفوق... بل القيادة الدينية بمعناها الصحيح العام تلزمها القيادة السياسية والإدارة العامة وكل

ما هنالك... وهذه الكفايات لا يمكن أن تهبط على الشعوب من السماء: فالسماء كما أنها لا تمطر ذهباً ولا فضة فإنها لا تمطر أيضاً سيادة ولا مجداً... ولا يمكن أن توجد فيهم طفرة بدون أسباب وعلل... كل هذا صحيح ولكن ما الذي حدث؟

حدث أن أرسل الله إلى عبده ورسوله محمد عليه السلام في الأوان المهيأ المعلوم وعند استجماع الشروط، يأمره بأن يبعث قومه العرب ويبعث العالم معهم بعد أن علم أنهم قد تهيأوا لهذا البعث والإنبعاث. فوثبوا وثبتهم فدخلت الأمم والشعوب برمتها في دينهم ودولتهم... ولكن من سوء حظ الإنسانية - والحظ مهما نطلقه نقصد به غير الحظ عند العوام ونظرائهم - أن كل حادث مهما كان سعيداً لا بد أن يحمل معه نتائجه... هذه الحضارة والكشوف العلمية الحديثة وفوائدها تجل عن الإحصاء قد جرت معها نتائجها - أو على الأصح ما عد نتائج لها - حملت معها هذا التدمير المروع وهذه الحروب العلمية المهلكة، وكذلك هذان البعث والإنبعاث العربيان قد حملا معهما نتائجهما وذلك أن الشرق كان - وهو لا يزال كما كان - يتثاقل تحت هياكل الأديان والمذاهب وتحت بقاياها المحطمة - والأديان كلها كما هو معلوم كان مهبطها الشرق وحده. فهناك أديان الهند والصين وسائر أجزاء الشرق الأقصى. وهذه الأديان والمذاهب كلها تقدس الألم والعذاب والحرمان والتجرد من اللذائذ المادية، وتقدس الإستسلام والمسكنة والهوان والذل وسائر هاتيك المعاني، ذاكرة أن العناية بالروح والروحانيات هي السبيل إلى الكمال وإلى السعادة الأبدية. وما فتئت الهند وسواها حتى اليوم تتمزق تحت سياط هذه المذاهب وتئن تحت أثقالها... وهناك بقايا الديانة المسيحية المحرفة الملفقة وما تدعو إليه من الرهبانية ومن الإنقطاع والإنفصال عن الدنيا ومن الحث لأتباعها وللمؤمنين بها على أن يعملوا لأن تكون أموالهم وتجاراتهم ومنازلهم وأجران قمحهم وكل ما يطلبون في السماء، حيث لا سوس ولا لصوص، على تعبير الإنجيل، وحيث لا فساد ولا كساد - ثم ما تنادي به من الخضوع للظالمين المعتدين وإعطائهم ما يريدون من ضرب الحدود والجلود وأخذ الأردية والأزر، وغير ذلك من فروض السخرة، حتى إن من سخر للسير ميلاً وجب عليه أن يسير ميلين - كما تقول نصوص هذه الديانة.

ومن المعقول المفروض أن يكون كل هذا مما يدعو إليه هذا الدين، لأنه نشأ في

كنف قسوة أعدائه الأقوياء على أيدي أهله وحوارييه الضعفاء. ولا بد من إستسلام الضعيف الآتي بالمبادىء الجديدة لمن يسوده ويحكمه، ولا بد أن يحض الرؤساء من أهل هذه المبادىء أتباعهم على الخنوع وأن يكون شعارهم: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" أي اعطوا إله الأرض كل ما يطلبه منكم كما تعطون إله السماء ذلك. ولو لم يدعوا إلى ذلك لدمروا.

وهنالك الديانة اليهودية والمجوسية وسواها من الديانات الفارسية – وهناك ديانة الصابئة... إلى أديان أخرى كثيرة يموج بها الشرق إذ ذاك موجاً وينوء بأعبائها نوءاً.

وكانت هذه الديانات والمذاهب تكاليف باهظة تدفع ثمنها رجولة هذا الشرق وسعادته وقوته وحياته. وكانت الحالة الإجتماعية والقوانين الإجتماعية تعمل بدأب وإخلاص على تنمية هذه الآراء والتعاليم عملاً حثيثاً متواصلاً. فالحكومات ورجال الدين وغيرهم وما فرضوه وخلفوه ونشروه من يأس وقنوط وحرمان وإذلال وجهل وظلم وأشياء أخرى كانت إحدى نتائجها فساد التصور وفساد الذوق وفساد الحكم على الأشياء. بل كان إحدى نمتائجها المرض الأدبي العام... وكان ما يرى ويعلم هناك حينئذاك يوحي لهذا الفساد بالبقاء والإستمرار.

ولكن بينما كان كل شيء في هذا الشرق، بل وفي الغرب، كما ذكرنا وفوق ما صورنا إذ بالخيول العربية تنساب في سهول هذا الشرق إنسياب النور بعد ليل اشتد ظلامه وطال مقامه. وإذا بهذه الشعوب والأمم تتفلت من تلك الأصفاد والأغلال أو على الأصح تحاول أن تتفلت. ثم تعلم مختارة راضية دينونتها لدين العرب ودخولها في دولتهم. ولكن كان ما ذا؟ دخلت هذه الشعوب والأمم في الدولة العربية والديانة العربية والثقافة العربية تحمل معها بقايا أصفادها وأغلالها وتصوفها ودهدها ورهبانيتها وإستسلامها وكل ما كانت فيه. فوجدت العرب الأحرار – أبناء الحرية وأبناء الصحراء الحرة، الحر ما فيها – لا يعرفون سوى التساهل والإخلاص وسلامة الضمائر وحسن الظن والسرور بكل من يفد عليهم معلناً قبوله ما جاءوا به... وهنالك في تلك البيئة العربية الحرة المتساهلة راح أبناء هذه الشعوب والأمم ينفثون تلك الآراء والعقائد والجراثيم الإعتقادية على حساب الإسلام وعلى أنها لباب الديانة الإسلامية – وراحوا يؤلفون

ويقصون ويعظون ويرشدون ويفسرون ويحدثون ويتصوفون ويزهدون... فامتلأ الجو بالدخان وغامت السماء الصافية الصحراوية، واحتجبت بالغيم الذي يمطر الشقاء والعذاب، وأخذ يتلاشى ذلك النور المشرق من فوق جبال مكة وأخذ يخالطه الظلام ويطغى عليه... فتمت المصيبة وأطبق الظلام ثم رجعت هذه الشعوب إلى ما كانت عليه تتخبط في دياجيرها وتتهاوى في عذابها، ولكنها هذه المرة راحت تتخبط ومعها قسم كبير من العرب أنفسهم الذين رفعوا المشاعل، فكان الخطب أفدح.

احترف هؤلاء الأبناء صناعة الدين والعلم، وصار أكثر من يدعون العلماء والشيوخ منهم. وأسباب هذا معقولة طبيعية. فعمدوا إلى القرآن والسنة وإلى مبادىء الإسلام يحاولون فهمها أو يحاولون الكلام فيها، وراحوا يفسرونها بالروح التي دخلوا بها. وكانوا عاجزين عن أن يدركوا إدراكاً صحيحاً شرائع الإسلام وأوامره ونواهيه ونصوصه وأهدافه لأمور: منها أنهم كانوا لا يعرفون اللغة العربية معرفة صحيحة كاملة لأنهم غرباء عنها، ومن تعلمها منهم لم يستطع النفوذ إلى أسرارها نفوذ الخبير. ومن جهل اللغة جهل ما أنزل فيها بلا شك. ومنها أنهم دخلوا يحملون في نفوسهم وعقائدهم جراثيم ذلك المجتمع الفاسد الذي خرجوا منه: يحملون مبادىء خبيثة ورثوها عن عهود الإستبداد والحرمان والظلم، وعن العبودية لغير الله، وعن تلك السياط التي كانت تتلهب على ظهورهم، وتنتزع جلودهم، وتعلو وجوههم، وعن ذلك الكذب والدجل الكهنوتي، وعن تلك العقد والعلل النفسية التي ولدها ذلك الشر الشامل المستطير في تلك العهود وعن تلط النزعات الصوفية الزهدية المخدرة... فكان من العسير أن يتخلصوا منها لمجرد أن أعلنوا الدخول في الديانة الجديدة، وكان من العسير ألا تكون تلك البقايا والمخلفات مسيطرة على ما يكتبون ويقولون. بل كانوا يلفظونها زاعمين أنها الإسلام حاملين عليها مؤولين ما لا يمكن حمله عليها من نصوصه، مختلقين الروايات والأحاديث والأقاصيص ليؤيدوا بها ذلك الباطل.

وقد حاول هؤلاء أن يتقربوا إلى أصحاب الدين الجديد وأن ينالوا رضاهم والحظوة لديهم، فوجدوا بدون عناء كبير من التفكير أن أعظم وأضمن وسيلة إلى ذلك هو التدين والتظاهر بالدين والعكوف على التأليف والكتابة وعلى نشر

http://www.ithar.com

الغرائب ونشر ما لم يسمع به أهل هذا الدين من أعاجيب الكلام في الزهد والرقائق وإمتداح الآلام وصنوف العذاب بل وامتداح الذل والمهانة وضآلة القدر وخمول الشأن، بل وامتداح الأمراض والأسقام بل وامتداح الجهل والغباء، بل وامتداح الجنون والعته والخبل!!

وقد يذهب بعض الباحثين المفكرين إلى أن طوائف من أولئك الأبناء إنما حملهم على ما فعلوا وكتبوا وقالوا هو سوء القصد وإرادة الكيد لهذا الدين وأهله المنتصرين... من الممكن أن يكون هذا المذهب والإحتمال صحيحاً في نفسه وأن يكون غير ذلك، فهذا محل للخلاف. ولكن الذي لا خلاف فيه هو أنهم أغرقوا العالم الإسلامي بطوفان من الكتب والمقالات المخدرة المدمرة التي تدعو بلا حياء إلى كل هذه الآفات والتي تمتدحها وتدعوها أسمى ما في الأديان من مبادىء.

وإني أستطيع أن أقول هنا – ولست أشك في صدق ما أريد أن أقول – إننا لو حشدنا جميع المؤلفات التي تركها هؤلاء لنا ثم جهدنا على أن نخرج منها كتاباً واحداً أو رسالة واحدة لا تمدح الفقر والشقاء ولا تذم الحياة والجمال لأعوزنا هذا الكتاب، ولما وجدنا تلك الرسالة.

وقد أطالوا الكلام جداً ولونوا الحجج والأساليب في الثناء على هذه الآفة ومشتقاتها – أعني الفقر – وقد ذكروا أن أعمال الخير كلها تنطوي تحت هذه اللفظة، وأنه أي الفقر هو كل شيء! فحكوا عن البسطامي – أحد شيوخهم المعبودين – قال أوقفني الله بين يديه وقال لي: بم جئت يا أبا يزيد؟ فقلت يا رب جئتك بما ليس في خزائنك منه شيء! فقال وما هو يا أبا يزيد؟ قلت: الفقر والإفلاس! فقال جئتني بكل شيء! !وقد زوروا هنا روايات لا يحصيها المحصون. والروايات التي ذكرت في بداءة هذا الفصل هي نموذج صغير لما زوروا في هذه المسألة. ومما ذكروا أن الرسول قال لبلال: (الق الله فقيراً ولا تلقه غنياً وإلا فالنار.) وقيل يا رسول الله أي أمتك شر؟ قال: (الأغنياء.) وقال (لا تتخذوا الضيعة فتحبوا الدنيا.) وحكوا أنه عليه السلام دعي مرة للصلاة على رجل من أصحابه فقال (انظروا هل ترك وراءه شيئاً) فقالوا نعم ترك دينارين أو درهمين فقال عليه السلام (كيتان في النار أو جمرتان.) وقيل له في رجل آخر إنه ترك ثلاثة دنانير فقال عليه السلام (ثلاث كيات) وأنه قال (من ترك ديناراً فهو له كية.) وحكوا أن رجلاً من أهل الصفة توفى فوجد في مئزره دينار فقال عليه

السلام (كية) ثم توفى آخر فوجد أيضاً في مئزره دينار فقال (كية) كما حكوا أنه عليه السلام أبى أن يصلي على من ترك شيئاً. ورووا أنه قال: (إن الله إذا أحب عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء.) ورووا أنه قال (الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له) وأنه قال (اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين.) والمساكين هم الفقراء البائسون اليائسون، كما دلت موارد هذه الكلمة كلها في القرآن. وأنه قال (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها) وقال (الدنيا جيفة وطلابها كلاب)، (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي الكافر منها جرعة ماء) وأنه قال مرة لأحد أصحابه (أما ترضى أن تكون لهم – يعني الكفار – الدنيا ولنا الآخرة) فقال الصحابي بلى، فقال (فإنه كذلك) (ما ذئبان جائعان ضاريان أرسلا في غنم بأسرع فساداً فيها من امرىء في دينه يحب الشرف والمال.) بل رووا أنه عليه السلام قال (المؤمن لا يخلو من ذلة وقلة وعلة –) ذكره العجلوني وابن علان حديثاً، وذكره الغزالي في الإحياء على أنه من كلامه.

والروايات في مدح الفقر والفاقة وذم الدنيا والغنى كثيرة جداً لا يخلو منها كتاب! بل ادعى جماعات من هؤلاء أن غاية الدين وجملته أربع كلمات: إحداها كلمة: (ازهد في الدنيا يحبك الله) ونظموا ذلك شعراً قائلين:

غاية الدين عندنا كلمات
مسندات من قول خير البرية

ثم عدوا الكلمات الأربع وذكروا منها الزهد. ولهذا قال الشيخ الغزالي في كتابه مكاشفة القلوب وفي غيره من كتبه: إن الأنبياء ما جاءوا إلا لذود الناس عن الدنيا! ومثل قوله هذا قال سائرهم.

ومن السهل أن يأخذ القارىء ما شاء من الكتب ثم يفتحه ثم يقرأ الأبواب فسيجد في كل كتاب من هذه الكتب قولهم مثلاً: (باب مدح الفقر)، (باب مدح الفقراء)، (باب مدح الزهد)، (باب مدح الزاهدين)، (باب ذم الدنيا)، (باب ذم أهل الدنيا)، (باب ذم الغنى)، (باب ذم الأغنياء)، (باب الترغيب في ترك الدنيا)، (باب الترهيب من الدنيا)، (باب فضل الخاملين والساقطين...) وحتى كتب الحديث الصحيحة تجد فيها هذه الأبواب ولا تجد ما يخالفها. وهذا أمر قد وقع عليه إجماعهم.

http://www.itrar.com

وهذا الشيخ النووي ألف كتابه (رياض الصالحين) لهذا الغرض – أي غرض الذود عن الدنيا والتنفير منها – وقد صدر الكتاب بأبيات من الشعر الميت جاء فيه:

إن لله رجالاً فطناً
طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا إليها فلما علموا
أنها ليست لحى سكناً
جعلوها لجة واتخذوا
صالح الأعمال فيها سفناً

ولا يخفى على القارىء ما يرمي إليه هذا الشعر الذي بقي منذ قيل إلى اليوم أنشودة المنشدين، وترنيمة الواعظين، وخمرة الشاربين ولا يدري هؤلاء القائلون لمثل هذا أن الرجال الفطناء إذا طلقوا الدنيا تزوجها بعدهم الأشرار والأغبياء فحكموا بها عليهم وعلى فطانتهم وقادوا العالم – وفيه هؤلاء الفطناء – إلى ما يريدون ويحبون، وأنهم إذا ما طلقوها فقد هلكوا ولا بد.

وقد وجدنا كتباً كاملة قد وضعت لهذه الأغراض، فوجدنا ابن أبي الدنيا – وهو أحد الحادين بالفقراء – يؤلف كتاباً يسميه – من غير أن يشعر أنه أخطأ أو أنه يمكن أن يعد مخطئاً – (ذم الدنيا) ووجدنا كتباً كثيرة تسمى كتب الزهد. وهذا كله معلوم لا فائدة من الإطناب فيه.

ومما لا نزال نذكره بكثير من الألم والأسف أننا قرأنا في كتاب قيم لإمام من أئمة الإسلام الأعلام أجللناه عن ذكر اسمه في هذا المقام قال فيه: سئل أحد أئمة التابعين – وهو الحسن البصري – عن رجلين: أحدهما عمل في الدنيا بقصد أن يصيب منها ليصرف ما يصيب في مصارف البر ووجوه الخير وفي الطاعات وضروب الإحسان... فأصاب منها ما أصاب فوضع كل ما أصاب كما أمر الله أن يوضع بإخلاص وصدق نية... هذا رجل، ورجل آخر أعرض عن الدنيا إعراضاً كاملاً، فلم يعمل فيها شيئاً وأصبح كلاً على المجتمع... أي الرجلين أفضل! فقال: بعيد والله ما بينهما، بينهما كما بين المشرق والمغرب – الذي ترك الدنيا أفضل! وقد نقل هذه الرواية والحكاية والفتوى الغزالي في إحيائه مسروراً بها.

ولما أن كان رأي هؤلاء الشيوخ هو ذم الدنيا بكل وجوهها وفروضها، وذم كل الأغنياء: من كانوا وكيف كانوا فقد ارتكبوا إثماً عظيماً هنا لما قيل لهم: إن كثيرين من الصحابة كانوا أغنياء وأنهم لم يحاولوا أن يطلقوا الدنيا – أمثال عبد الرحمن بن عوف والزبير وطلحة بن عبيد الله وآخرين كثيرين – فقد ذهبوا يخلقون روايات في ذم هؤلاء الصحابة الأغنياء وثلبهم، وقد ذكر بعض هذه الروايات الحارث بن أسد المحاسبي والشيخ الغزالي وصاحب مجمع الزوائد وسواهم.

* * *

ولقد تطورت هذه الأغراض الجنونية عند هؤلاء تطوراً مخيفاً، فذهبوا – مدفوعين أمام هذه الأعراض والأمراض – كل مذهب في طرق السخف والعماية: فلم يقفوا عند مدح الفقر والفاقة بل تجاوزوا ذلك وقاموا يمدحون الأمراض والأسقامة (وقد جدوا أبلغ الجد في خلق الروايات ونسبتها إلى من جاء لشفاء الإنسانية من جميع أمراضها) ومن أقبح ما رووا هنا ما نقله الغزالي في الإحياء وما نقله غيره أيضاً، قال: جاءت امرأة إلى الرسول فقالت: يا رسول الله إن عندي فتاة جميلة أحببت أن أهديها لك زوجة، فقال (قبلتها) ثم قالت يا رسول الله إلا أنها لم تمرض فقال عليه السلام (إذن لا حاجة لي بها) وذكر أيضاً أن رجلاً بايع رسول الله على الإسلام ثم قال إني لم أشك ولم أدر ما الشكو فأشار إليه رسول الله قائلاً: (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا)! وحكى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها، وذكر الروايتين الأوليين صاحب (مجمع الزوائد) في كتاب الجنائز... وذكروا روايات كثيرة جاء فيها أن الرسول دعا الله بأن يخص أصحابه والمؤمنين به بالحمى وسائر العلل وأن يهلكهم بالطعن والطاعون (وأنه سأل الله أن ينقل الحمى من أماكنها البعيدة والقريبة وأن يجمعها على أصحابه المخلصين في المدينة... وروايات أخرى في إمساك الحمى في المدينة وإرسال الطاعون إلى الشام! ومن المصائب أنهم صححوا هذه الروايات ولم يشكوا في أنها من كلام محمد عليه السلام.

ولكن كل هذا لا يبلغ في الشناعة مبلغ ما رواه الطبراني عن أنس بن مالك قال لقد رأيت أصحاب النبي عليه السلام حوله يتباكون يريدون أن تذهب أبصارهم وأن يصبحوا عمياناً! وأي قوم هؤلاء الذين يبكون لأن الله خلقهم مبصرين ولم

http://www.ithar.com

يخلقهم عمياناً...! وقد ساقوا أكاذيب متعددة جاء فيها أن الطاعون لما وقع في الشام أخذ كبار أصحاب الرسول يسألون الله أن يصيبهم به وأن من أصيب به منهم خفق قلبه سروراً.

وإن أعظم برهان نضعه في يد القارىء على أن الجنون قد بلغ بهؤلاء الشيوخ كل مبلغ أن نذكر أن الشيخ الأسيوطي ألف كتاباً عنوانه هكذا (كشف المعمي في فضائل الحمى) وأن الشيخ ابن حجر العسقلاني – وهو من الحفاظ المشهورين – وضع كتاباً أسماه (بذل الماعون في فضل الطاعون)، وللسيوطي كتاب آخر اسمه (الخبر المبثوث في فضل البرغوث) ولمؤلف آخر كتاب اسمه (الطرثوث في فضل البرغوث.) وقد أكثروا جداً من الروايات التي قيل فيها إن المؤمنين والأتقياء الصالحين يخصهم الله بالأمراض والمصائب وأنه على قدر إيمان المرء ودينه يكون بلاؤه وعذابه، وأن من يرد الله به خيراً يصبه ويصب منه، والروايات في هذا مشهورة يلوكها كل لسان وتكذب فوق جميع المنابر.

وهذه الروايات على قسمين: قسم صحيح ولكن معناه غير ما ذهبوا إليه، بل المراد منه أن الذين يقومون بوظيفة الإصلاح الكبرى محاولين هداية الناس وإنقاذهم من الفساد والجهل والظلم والضلال الذي لا يخلو منه جيل من الأجيال لا بد أن يشقوا وأن ينصبوا وأن يبتلوا... لأن الهمم الكبيرة والنفوس التواقة إلى الإصلاح تشقى، ولأن الناس يتألبون عادة على من يريدون إخراجهم مما ألفوا واعتقدوا... وقسم آخر منها غير صحيح.

وعند هؤلاء القتلة أن الفقر الذي مدحوه هو الفقر في كل شيء. ومن ثمة جاءوا بأحاديث وروايات تنهي نهياً عاماً شاملاً عن العمران وعن البناء وتأمر بهدم كل ما بني مهما كانت الأغراض والمقاصد، وقد سددوا إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام طعنة نجلاء يوم نقلوا أن رسول الله خرج ذات يوم فرأى بناء مشرفاً فقال: ما هذا؟ فقيل هذا بناء لرجل من الأنصار، فسكت وحملها في نفسه حتى جاء صاحب البناء فسلم عليه فأعرض عنه ولم يرد عليه السلام، صنع ذلك مراراً حتى عرف الغضب في وجهه والإعراض عنه فشكا ذلك إلى أصحابه فقالوا له إن رسول الله خرج فرأى بناءك... فرجع الرجل إلى بنائه فهدمه وسواه بالأرض ثم خرج رسول الله فلم ير البناء فسأل عنه فأخبر أن صاحبه هدمه فقال: إن كل بناء وبال على صاحبه. ورووا أن رسول الله رأى عبد الله بن عمرو

يصلح كوخاً قد وهي فقال: إن الأمر أسرع من ذلك - يعني بهذا أن الدنيا أقصر عمراً وأقل شأناً من أن يحاول العاقل إصلاح شيء فيها... ورووا أنه عليه السلام قال: يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب والبناء فلا خير فيه. وأنه قال: إذا أراد الله بعبد شراً حسن له البناء، وفي حديث آخر: إذا أراد الله بعبد سوءاً أنفق ماله في البنيان ونقلوا أنه عليه السلام قال: من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة على عنقه. ورووا أن العباس بن عبد المطلب بنى غرفة فقال له النبي: اهدمها! فقال العباس أهدمها أو أبيعها وأتصدق بثمنها؟ فقال: بل اهدمها. وأنه عليه السلام نهى إطلاقاً عن البناء. ورووا أنه قال: إذا بنى الرجل المسلم سبعة أذرع ناداه مناد من السماء: أين تذهب يا أفسق الفاسقين. ورووا في روايات كثيرة أن البناء إحدى إمارات الفساد والفسوق والهلاك.

وحكوا عند تفسير قول الله "أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون"أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون في غوطة دمشق من البنيان ونصب الأشجار قام في مسجدهم خطيباً ونادى: يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه! فحمد الله ثم قال: ألا تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبتون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون، ويبنون فيوثقون، ويأملون فيطلبون... فأصبح أملهم غروراً، وأصبح جمعهم بوراً، وأصبحت مساكنهم قبوراً، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين. ورووا عن عبد الله بن عمر أنه قال - شاكراً الله على ما فعل: - والله ما وضعت لبنة على لبنة ولا غرست نخلة منذ قبض النبي.

ثم لم يقصروا عند هذا بل ذهبوا بعيداً فادعوا أنه عليه السلام قال - وهذه إحدى الطامات: - إنما بعثت بخراب العالم ولم أبعث بعمارته. نقله صاحب مجمع الزوائد من رواية الطبراني... هذا بعض ما رووا من الأحاديث والروايات في النهي عن العمران والبناء.

ثم حاولوا أن يتناولوا جانباً آخر من جوانب الحياة بالتدمير والهدم، فراحوا كالمجانين ينقلون روايات في النهي عن الزراعة وفي ذم الزارعين: فنقلوا أنه عليه السلام قال: ما من أهل بيت يغدو عليهم فدان - أي ثور الزراعة أو آلة الزراعة - إلا ذلوا. وأنه رأى يوماً آلة الزراعة أمام بيت رجل من الأنصار فأشار إليها

وقال: إن هذه لا تدخل بيتاً إلا أدخل الله فيه الذل إلى يوم القيامة، كما ذكروا أنه عليه السلام نهى عن المزارعة وعن كراء الأرض، وأن جماعة من الصحابة كانوا يكرون أرضهم فتركوا إكراءها من أجل هذا الحديث تاركيها بوراً - إلى روايات كثيرة.

* * *

ثم أخذت هذه الأمراض أشكالاً أخرى حينما قاموا ينقلون لنا روايات وأخباراً وآراء في مدح القذارة ووساخة المظهر وفي ذم النظافة ومحبي النظافة، من ذلك أنهم نقلوا في شمائل مصلح الإنسانية الأكبر عليه السلام أن ثوبه كان كأنه ثوب زيات، وأنه قال: (إن العي والبذاذة من الإيمان) والبذاذة هي قذارة المظهر وسوء الحال. ونقلوا أنه عليه السلام علم أصحابه أن يبصقوا وأن يخرجوا ما في أنوفهم وأن يضعوه في أكمامهم وأرديتهم. وحكى الغزالي في إحيائه - أو على الأصح في إماتته - أن المسلم إذا كان ممن يميلون إلى النظافة في البدن والثوب رباه شيخه، وأن أحسن ضروب التربية لمثل هذا أن يلزم بكسح المجاري والإتصال بالقاذورات ليعتاد إتساخ المظهر فلا يعنى بنظافة بدنه وثوبه... وما من شيء يذكر في هذا يمكن أن يكون برهاناً على عظم إساءة هؤلاء إلى الإسلام مثل ما نقلوا عن الحسن بن علي أنه أصاب لقمة في مجرى الغائط والبول فأخذها وغسلها ثم دفعها إلى غلامه فلما توضأ قال للغلام: ناولني اللقمة، فقال الغلام أكلتها، فقال اذهب فأنت حر لوجه الله. فقال الغلام يا مولاي لأي شيء أعتقتني؟ قال لأني سمعت فاطمة بنت رسول الله تذكر عن أبيها أنه قال: (من أخذ لقمة أو كسرة من مجرى الغائط والبول فغسلها ثم أكلها لم تستقر في بطنه حتى يغفر له) فما كنت لأستخدم رجلاً من أهل الجنة. قال الحافظ الهيثمي: رواه أبو يعلي ورجاله ثقات... وذكروا أنه عليه السلام ذكر مرة حوضه ومن يرده عليه أول الناس فقام عمر بن الخطاب وقال يا رسول الله من هم؟ قال: هم الشعث الرؤوس، الدنس الثياب، الذين لا ينكحون المنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد، قال فقال عمر بن عبد العزيز أنا والله قد نكحت المتنعمة فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي السدد، لا جرم والله لا أدهن رأسي حتى يشعث ولا أغسل ثوبي الذي يلي جلدي حتى يتسخ.

ومما يقرب من هذا، وإن كان ليس منه، ما ذكره فقهاء الشافعية قالوا: إذا وجد جماعة من المسلمين ماء لا يكفيهم للوضوء لزمهم أن يبولوا فيه ثم يتوضأوا منه، وذكر صاحب القاموس في مادة (قمل) قال: خذ قملة رأس ثم ضعها في ثقبة فولة ثم أعطها المريض يشف. جُرِّب هذا. ويذكر داود الأنطاكي في تذكرته الشهيرة أشياء كثيرة من هذا، وكثيراً ما يوصي بأكل القمل والحشرات وهي حية.

* * *

هذه نماذج قليلة صغيرة لما يرويه هؤلاء ولما يرونه من سوء الحال ومن الشقاء الذي كان عليه رسول الله وأصحابه على حسب زعمهم، مما يجب أن يدعى إليه المؤمنون بالرسالة المحمدية، وأن يلزموه وأن يأخذوا به ليكونوا مؤمنين حقاً.

وجملة هذه الآراء أن المطلوب من المسلم أن يموت أنواع الموت كلها بكل معانيه ومظاهره وغرائزه ولذاته ليحيا في الآخرة وأنه بقدر موته في الحياة تكون حياته في الآخرة، وبقدر حياته في الدنيا يكون موته في الأخرى وقد صرخوا بهذا تصريحاً ونظموه شعراً فقالوا – ولهم الويل:–

موت النفوس حياتها

من شاء أن يحيا يموت

فالواجب على المسلم عند هؤلاء الهدامين المخربين أن يموت في مظهره وفي ملبسه وفي بطنه وفي صحته وفي ماله وفي صناعته وزراعته وتجارته وفي كل أعماله وأموره وإلا فلن يكون مسلماً حقاً ولا مقتدياً بالرسول وبالسلف الصالحين الأولين الزاهدين. وقد بالغوا جداً في وصف الرسول ومن معه بالفاقة والشقاء وبالفقر وبموت الشهوات والغرائز الدافعة إلى العمل، المتدفقة بالإبتكار، المنشطة المبدعة وبالجوع وبسوء المظهر والحال وشظف العيش. وبالغوا في وصف تطلبهم هذه الأشياء قصداً وعملهم على أن يتصفوا بها عمداً، حتى صار فقر الرسول ومن معه مضرب الأمثال على كل لسان. فالخطباء والواعظون والصوفية وسائر أصناف المتكلمين والمؤلفين بل والعامة والشعراء يضربون الأمثال إذا شاءوا أن يجيئوا بأبلغها وأعظمها بفقر محمد عليه السلام وبفقر من معه من الصحابة وفقر من كان قبله من الأنبياء والمرسلين، حتى جرى على ألسنة العامة والنساء: الفقر على باب النبي، وراح أحد الشعراء وهو البحتري

يصف فقر نفسه وشقاءها ذاهباً كل مذهب في المبالغة فقال:

فقر كفقر الأنبياء وغربة

وصبابة؛ ليس البلاء بواحد

وليس القارىء في حاجة إلى أن نؤكد له بأن هذا كله كذب وجهل وخلاف للواقع، وأنه من الهون والهوان بالإسلام والمسلمين أن يحكي هذا على أنه من الشريعة المحمدية... ولسنا هنا بصدد من هذا وإنما غرضنا أن نذكر الأسباب والعوامل الهدامة الحقيقية التي تألبت على هذه الديانة وعلى الدائنين بها كل هذه الأحقاب الطوال فأورثتهم هذا الجمود الذي تحتاج إزالته عنهم أو – إزالتهم هم عنه – إلى زلازل عنيفة وهزات متوالية متواصلة، بل إلى من ينفخ في الصور حتى يزلزل مضاجعهم.

* * *

إن الفقر والمرض والجهل هي أعداء الإنسان منذ وجد، وستبقى كذلك ما بقي. وقد وجد هذا المثلث مع وجوده، وحبا معه في جميع مراحل تاريخه ولم يفارقه في طور واحد من أطوار حياته. فقد لزمه حينما كان يهيم في الغابات ويأوى إلى المغارات قبل أن يعرف المساكن والبيوت، وحينما ترقى إلى سكني النقر في الصخور ثم بعد أن عرف الأكواخ، ثم لزمه بعد أن سكن القصور وشاد العمارات وناطحات السحاب... وقد عرف الإنسان منذ عرف الحياة هذا المثلث، وعرف شدة فتكه وما يصبه عليه من الخراب والشقاء والدمار. وقد علم وهو في بداية تاريخه أن من الواجب عليه أن يقاوم هذا العدو وأن يواثبه، وعلم أن مقاومته مما يقع في الإمكان وحدود القدرة. فهب لهذه المقاومة منذ عشرات الآلاف من السنين التي لا يدري عددها على وجه الضبط اليوم أحد من البشر فبذل من المقاومة والمناهضة ما لا تتصوره عقولنا. وإن كل ما نتمتع به في عصرنا هذا من ثمرات الحضارة وخيرات المدنية إنما هو نهاية كل تلك الجهود التي بذلت وانتفقت لمحاربة هذا العدو اللدود... وإن تلك الجهود لتسر وإنها لتحزن! أما أنها تسر فلأنها قد توجت بنصر الإنسان أو بما يقرب من النصر، إذ قفزت به إلى هذه المدينة وإلى هذه الحياة الصحيحة أو التي تقرب من الصحة، ومكنت من إجتناء هذه الثمرات. ولولاها لما فعل ولما كاد... وأما أنها تحزن فلأن الإنسان قد لقي في هذا الجهاد من الآلام والعذاب ما لم يلقه وما لا يمكن أن يلقاه

في شيء آخر.

ولولا محاولات الإنسان المتواصلة الهرب من الفقر ومن جميع أعراضه ونتائجه لما استطاع أن يحسن الصناعة والزراعة حتى تصبحا بهذا الشكل الرائع المبدع الذي نشهده – بل لما عرفهما ولما فكر فيهما، ولما وجد ما يدفعه إلى هذه المعرفة وإلى هذا التفكير... ولولا محاولاته الفرار من الأمراض ومن بلاياها ورزاياها لما اهتدى إلى هذه الكشوف والمخترعات الطبية التي تعد من أكبر النعم التي أفيضت على الإنسانية... ولولا هذا وهذا لما استطاع أن يرتفع على الجهالة التي كانت تغمره من كل جانب، والتي كانت تقف له في كل مرصد، والتي كانت تملأ عليه الفجاج بالظلام وتسد كل طرقه بالآلام.

ولو أننا فكرنا في كل حادثة من حوادث هذا الوجود الصغيرة والكبيرة، وفكرنا في أسبابها وعللها القريبة والبعيدة، الظاهرة والباطنة، لما أمكن أن تخرج عن أن تكون أحد هؤلاء الثلاثة أو أن تكونها جميعاً.

إن أعظم حادث يشغل الإنسان اليوم، وشغله قبل اليوم، وسوف يشغله ما بعد اليوم وسوف يبقى مالئاً لجوانحه بالرعب والفزع والإشمئزاز هو الحرب ولو أننا تلمسنا أسبابها من قرب ومن بعد، وعملنا على حصرها وإحصائها، وحرصنا على أن نجد هذه الأسباب أو بعض هذه الأسباب في غير الفقر والمرض والجهل لما وجدناها ولما أمكن أن نجدها... ولو أنا بحثنا كل مشكلة من مشاكل هذه الحياة ومشاكل هذا الإنسان وجهدنا أن نعرف كيف نشأت وكيف يمكن أن تعالج وأن تحل لعاد بنا البحث إلى هذا المثلث ولقال لنا: هنا الداء، وهنا يجب أن تلتمس أسباب الشفاء.

لنسأل الآحاد والجماعات والأمم والأفراد: ما الذي تشكون، وما الذي تريدون، أو ماذا ينقصكم وماذا تحبون أن يرد إليكم؟ إنهم حينئذ لن يذكروا لنا إذ حاولوا أن يجيبوا عن أسئلتنا هذه سوى المرض والفقر والجهل – إما بالنص وإما بالمعنى.

إن أصوات البشر المتحضرين لتنطلق اليوم من كل مكان وبكل لسان، منادية مبشرة بأن مواهبهم كلها وأعمالهم أجمع ستعبأ وستحشد للقضاء على هذه الشرور الثلاثة، وأنهم سيقضون عليها أو يخففون من فعلاتها وويلاتها ما أمكن التخفيف. وقد علقوا سعادة الإنسان كلها – كما تعلق الإنسان – بهذا

http://www.ithar.com

الفوز... وهم لا يرون أن هنالك خيراً يمكن أن يفعل، ولا شراً يمكن أن يقاوم أفضل من إعلان الحرب الشعواء العامة الحاشدة المطلقة على هذا المثلث... وقد بشروا بعد الحرب الماضية، وهم يبشرون اليوم بعد هذه الحرب بما سيقومون به في هذا السبيل وبما سيلقون من النجاح والظفر.

هذه كلها حقائق لا يسمو إلى جوها غبار من الشك، بل هي حقائق عرفها الإنسان يوم أن كانت معارفه ضئيلة تافهة، وعمل على قدر تلك المعارف التافهة الضئيلة. بل هذه المعارف هي الإنسان، أو هي الفارق بينه وبين ما دونه من الكائنات الحية الأخرى. على أن هذا ليس على إطلاقه، فإن أحياء أخرى هي دون الإنسان ومع هذا أدركت بمداركها الصغيرة أو بغرائزها الفطرية أن هذه الأعداء الثلاثة – التي هي أعداء الإنسان حقاً – هي أعداؤها أيضاً الفاتكة بها المعذبة لها. فراحت بمقدرتها القليلة وإستعدادها النزر تحاول الخلاص والفرار منها. وإن فصائل كثيرة من فصائل الحيوان لتعلم أو لتدرك أو لتشعر ما في المرض والفقر والجهل من عذاب وما في الخلاص منهما من سعادة وإن تصرفها كله وحياتها كلها المقودة بالغرائز أو بالإلهام قائمة على مكافحتها لها ومجانبتها إياها، بل إن الكائنات الميكروسكوبية لتدرك ذلك – أو على الأصح تتصرف وتحيا تصرف وحياة من يدركه.

وإذن فهؤلاء الذين نشروا في العالم الإسلامي، والذين ما زالوا ينشرون، أن الفقر والمرض – بل والجهل كما سبق – فضيلة من الفضائل وعبادة يطلب رضا الله بها قوم أقل ما يجب أن يقال فيهم أنهم أعظم من قطعوا الطريق على الإنسانية وأنهم أفتك أعدائها وخصومها وجلاديها. وإن الواجب أن ننظر إليهم على هذا الإعتبار وأن نحاسبهم على أنهم كذلك.

إن الحضارة التي يفخر بها الإنسان، والتراث الذي ورثه عن أسلافه منذ الإنسان الأول حتى الإنسان الآخر لا تخرج في مجموعها عن هذا النضال الطويل القاسي الذي صرف في مكافحة هذا المثلث ومكافحة هذه الويلات والشرور التي قام هؤلاء الناس يؤلفون الكتب والمقالات، ويزورون الخطب في إمتداحها ونشر فضائلها وتبيان ما فيها من القربى إلى الله والإزلاف لديه... فما أعظم خطرهم وأقبح أثرهم.

* * *

لما أراد القدماء من الفلاسفة أن يعرفوا كيف نشأ هذا العالم بنظامه العجيب المبدع استلهموا خيالهم وعقولهم وذكاءهم ومعارفهم طويلاً جداً ثم خرجوا بنتيجة رأوها صحيحة قيمة – هذه النتيجة هي أنهم زعموا أن العالم إنما نشأ وإنما ينشأ بدافع من العشق والغرام، فقد اعتقدوا أن كل حركة في هذا الوجود سببها العشق: فالأفلاك السيارة إنما تسير بعامل من هذا العشق – وهكذا كل تحرك وكل سير وكل تفاعل... وقد قسموا الوجود إلى عاشق ومعشوق، فالعاشق إنما يتحرك ويسير ويتفاعل تشبهاً بالمعشوق وشوقاً إليه – إلى فلسفة لهم طويلة لا طائل اليوم تحتها.

ولكن غرضهم من هذا هو تعليل حدوث الحوادث ووجود الأشياء بعضها من بعض وتوالدها. وهذا لأنهم يعلمون – كما يعلم جميع العقلاء – أن كل حادث أو كل حدوث أو كل فعل وحركة لا بد له من هدف ومن دافع، وإلا فإن الأشياء لا تحدث بدون أهداف وغايات... لماذا تتحرك الشمس والقمر والنجوم وكل ما يرى متحركاً – ولماذا لا تبقى ساكنة بدون سير وحركة ودوران إذا لم يكن لها غاية وفائدة في سيرها وحركتها ودورانها، فإن السير والحركة والدوران أعمال تنفق وطاقات تصرف وأعمال تؤدى وهل يمكن أن تبذل الجهود وتؤدى الأعمال وتبدد الطاقات بدون ثمن وبدون ربح يفيده الباذل المؤدي؟ وهذا كله على حسب رأي القدماء.

والذي نريد أن نستفيده من هذه الفلسفة القديمة هو الإشارة إلى أن من الثابت المركوز في جميع الأذهان والعقول أن الأهداف والغايات والآمال هي التي تحمل على العمل وعلى السير والحركة والدوران في هذه الحياة. ومن فقدوا هذه الأهداف والآمال والغايات فليس من الممكن أن يكون لهم في وجودهم إضطراب ولا حركة ولا عمل يمكن أن يحدث في الحياة حدثاً باقياً أو حدثاً جليلاً – وكذلك من صغرت وضؤلت آمالهم وغاياتهم... والذين ينتظر منهم ولهم أن يؤدوا الأعمال الكبيرة الخالدة وأن يبتكروا ويبتدعوا، وأن يتقدموا بالحياة وأهلها وبالوجود ومن فيه، وأن يحرصوا على السير والدوران هم أصحاب الغايات والأهداف السامية العظيمة التي لا تعترف بالحدود ولا بالقيود – هم أولئك الذين ينشدون دائماً الكمال ويرون أن الكمال أمر يطلب ولكنه لا يبلغ، إذ يعلمون أنه ما من كمال إلا وبعده كمال. فهم يطلبون أبداً الكمال في كل شيء؛ في الثراء وفي

http://www.ithar.com

الجاه، في العلم، في الصناعة، في الزراعة، في التجارة، في الصحة، في الجمال، في الحب، في القوة، في كل شيء يتناولونه.

وليس من الممكن أن يكون إنسان أكبر من أهدافه وآماله ولا أن تكون أمة من الأمم فوق أهدافها وآمالها. فإن من غير المعقول أن تكون أهداف المرء صغيرة ثم هو يكون كبيراً عظيماً، أو أن تكون أهداف الأمة صغيرة تافهة ثم تصبح هذه الأمة كبيرة عظيمة، بل لا بد أن يكون الإنسان – فرداً أو جماعة أو شعباً – إما دون أمله وغايته، وإما أن يكون مثلها وعلى قدرها... وهذا يكاد يكون نادراً أو مستحيلاً.

والأمم التي تنهض إنما تنهض لأن آمالها نهضت، والتي تهبط وتبقى في الرغام والتراب إنما كانت كذلك لأن آمالها لم تسم على التراب والرغام... فالذين يدخلون في هذه الحياة وهم لا يقبلون لهم أهدافاً سوى الثراء المطلق أو الكمال المطلق أو الجمال المطلق، قد يبلغون يوماً ما أهدافهم لأنهم يعملون لها لا محالة إن لم يقف في طريق العمل ما لا يمكن غلبه، ولا شيء يغلب التصميم غلباً مطلقاً.

أما أولئك الذين لا يريدون من الحياة سوى الفقر والبؤس والضراعة والجوع والمرض وكل هاتيك النقائص فلن يرتجى لهم سواها لأنهم لن يطلبوا سواها.

ونحن لو نظرنا إلى الأفراد والجماعات وجدنا الفرق بين فرد وفرد، وبين جماعة وجماعة هو الفرق بين هدف هذا وهدف هذا، وبين أهداف هذه وأهداف تلك، ووجدنا أن الأفراد الذين يسمون وينبغون، والأمم التي تسمو وتنبع وتسودهم أفراد وأمم عظمت آمالهم وغاياتهم، وأن الأفراد والأمم التي تذل وتهون هم أفراد وأمم لا غايات ولا آمال لهم. فالآمال الكبيرة هي التي تقتحم بأصحابها الأهوال وتهون عليهم أشق الأعمال، بل تهبهم اللذة والسرور في تناولهم الأعمال الشاقة وفي إقتحامهم المخاطر، لأن الأمل الباسم الحار ينسي كل ألم وكل تعب... أما الآمال الصغيرة الفقيرة فإنه ليس فيها القوة الدافعة ولا الروح الملهمة، ولا الحرارة الملهبة، ولا الإشعاع المضيء للطريق، ولا الوقود اللازم للطيران أو الدوران أو للإستمرار في العمل الكبير.

فالذين يرون أن أقصى ما يبغون هو الفقر والجوع والمرض والعري والزهد وإجتناب كل طيب وكل عظيم والإزورار عن كل جمال وجميل – الذين يبغون القناعة المطلقة – الشقاء المادي العام المطلق – الذين يبغون ما يذكره هؤلاء

الهدامون المدمرون – لا يمكن أن يكونوا أكثر ولا أكبر مما كانوا، ولا يمكن أن يكونوا سوى هذه القطعان الآدمية التي تساس بما زعمت أنه هدفها وغايتها من الحياة – أي تساس بالفقر والجوع والمرض والجهل وكل النقائص الإجتماعية ثم لا تزداد على هذه السياسة إلا تمسكاً بأهدافها ولصوقاً بغاياتها وإيماناً بشعارها، رافعة أيديها وأبصارها إلى السماء قائلة: اللهم زد وبارك، مادة أعناقها النحيلة المعروقة إلى الذين يسوسونها هذه السياسة قائلة: شكراً لكم أيها السادة فإنكم أنتم الذين تبلغوننا درجات القرب والرضوان، لما نلقي لكم من الشقاء والحرمان.

* * *

إن أساس كل كمال ونهوض وخير في هذا الوجود هو حب الجمال – ونعني بالجمال الجمال في كل شيء. فإن الثراء جمال، والقوة جمال، والحب جمال، والصناعة والزراعة والتجارة وإتقان ذلك جمال، وإن حسن المظهر والرواء وفخامة المسكن – وإن الشرق والجاه والعلم والجهارة: كل ذلك جمال، وإن أضداده كلها قبح ودمامة. لأن الجمال – مهما اختلف الناس في تحديده وتعريفه – لا يخرج عن أن يكون تناسق الطبيعة وإنسجامها وتكافؤها – ولأن الدمامة والقباحة لا تخرج عن أن تكون تنافر الطبيعة وتناكرها وتباينها.

فمن الأمور الأساسية لخير الإنسان وسعادته وشحذ مواهبه وبعث إستعداداته، ليأتي بأفضل ما أودع الله فيه من كمال كامل – هو تحبيب الجمال إليه، بل جعل الجمال، جزءاً منه، بل جعله هو الحياة، ثم صياغة التربية في المنزل وفي المدرسة وفي الشارع وفي كل ميادين البيئة بهذا التحبيب وبهذا الجمال... ويجب أن يعلم بأن قبح الفقر أو قبح الضعف أو قبح الخمول لا يقل عن قبح الآفات البدنية المنكرة – بل لا يقل عن قبح الأخلاق الفاسدة المنبوذة في المجتمع، والتي يعاقب عليها القانون، وأن يعلم أن جمال الثراء والسيادة وغيرها لا يقل عن جمال المروءة والشجاعة والصدق وسائر تلك الفضائل – ولا نقول: لا يقل عن جمال الخلق والوجه... وإننا إذا فكرنا جيداً وعلمنا لماذا كانت هذه الأخلاق – كالكذب والجبن والدناءة والسرقة والقحة وسواها – نقائص وجرائم وقبائح، ثم علمنا الأسباب التي كانت بها كذلك علمنا بلا شك أن هذه الدمامات الإجتماعية – نقصد الفقر والجوع والضعف والمرض وكل ما مدح هؤلاء

http://www.ithar.com

المادحون – هي كذلك نقائص وجرائم وقبائح، وأن مادحها لا يقل خطأ وفساداً في ذوقه عن مادح هذه الجرائم الإجتماعية والنقائص الخلقية... ويجب ألا نجد فرقاً بين مادح الفقر وبين مادح الكذب – لا، بل يجب أن نجد فرقاً، وهو أن مادح الفقر أشد جرماً وأعظم عماية لأن الكذب أحد نتائج الفقر أحياناً كثيرة.

إن الإنسانية لا تزال مثقلة بكثير من أعباء القرون الماضية وجهالات الوجود القديم الأول، ولا تزال مصفدة مغللة بما صنع الجهل والضلال من أصفاد وأغلال. وإن الواجب علينا بإعتبارنا بعض البشرية أن نتعاون على تحطيم هذه الأصفاد والأغلال.

من الأحاديث الطيبة الجميلة في هذا الباب أن رجلاً سأل النبي الكريم وقال: إن أحدنا يجب أن يكون ثوبه أجمل من ثوب أخيه ونعله أجمل من نعل أخيه هل في هذا بأس أو كبر؟ فقال عليه السلام: إن الله جميل يحب الجمال. كلمة تقوم على معناها الحضارة الإنسانية كلها، بل التاريخ الإنساني أجمع، بل الوجود كله... إن جميع ما كتبه علماء الإجتماع والفلسفة وغيرهم في تجميل الحياة وتجميل العمل وتجميل كل ما يتناوله الإنسان لا يبلغ مبلغ هذا الحديث في القوة وفي الحث والتحريض... لماذا خلق الله الشمس والقمر والنجوم وسائر المجموعات الشمسية، ما يرى منها بالعين المجردة وما لا يرى منها بالآلات الدقيقة المقربة، وما لا يرى منها البتة – لماذا خلق الله هذه كلها جميلة بارعة الجمال – ولماذا خلق الليل الجميل، والنهار الجميل، والألوان الجميلة، والأصوات الجميلة، والمناظر الجميلة، والإنسان الجميل، والحيوان الجميل، وكل هذا الوجود الجميل؟ خلقه كذلك لأنه يحب الجمال. ولماذا يحب الجمال؟ يحبه لأنه تعالى جميل والجميل يحب أن يكون كل شيء جميلاً – لأنه تعالى جميل في حكمته وفي حكمه وفي تدبيره وفي قضائه وقدره وفي ذاته وفي كل صفاته... فهذا الكون الجميل له مصدران في وجوده وفي وجوده جميلاً. أحدهما كون خالقه جميلاً، وثانيهما أنه يجب الجمال لكونه جميلاً. فالذي يحب الجمال جميل، والجميل يحب الجمال – كلمتان وجملتان صحيحتان. ثم حذار من الإعتراض بأن تقول: إن القبيح قد يحب الجمال كما أن الجميل قد يكره الجمال... فإن هذا الإعتراض غير وارد. وذلك أن القبيح الذي يحب الجمال هو جميل في ناحية ذوقه التي بها أدرك الجمال والتي بها أحب الجمال. والجميل الذي يكره الجمال هو

قبيح في ذوقه الذي لم يدرك الجمال ولم يحبه. لأن نواحي الحسن والجمال ونواحي القبح متعددة كثيرة. فالذي يكون جميلاً في جميع نواحيه لا بد أن يحب الجمال، والذي يكره الجمال لا يمكن أن يكون جميلاً في كل معانيه. فالقضية صحيحة صادقة. فالجمال والحب هما مصدر كل خير وكل فضيلة وكل نبوغ وعبقرية، وكل هناءة في الحياة... فأساس النهضات كلها، وأساس التقدم كله، وأساس المدنية بكل صورها وحقائقها، وأساس الكشوف والمخترعات هو جمال الأهداف والأغراض ثم حب هذه الأهداف والأغراض الجميلة حباً دفع إلى الإقدام والتضحية بل إلى الشعور باللذة والسرور في هذا الإقدام وهذي التضحية.

وليعلم أن الجمال المذكور هنا هو الجمال المادي. وذلك لأنه ذكر في جواب السؤال عن جمال النعل والثوب. فالله يحب جمال الثراء وجمال البيت وجمال الملبس وجمال الظاهر والباطن وجمال الصناعة والزراعة وجمال الحياة وجمال كل شيء... والله يحب من عبيده أن يحبوا هذا الجمال الذي يحب وأن يكرهوا ضده، وهو القبح في كل لون من ألوان حياتهم ووجودهم.

ولهذا الحديث رواية أخرى ولفظها! إن الله كريم يحب الكرم، جميل يحب الجمال، نظيف يحب النظافة. وكلمة النظافة تحمل كل معاني الرخاء وهناء العيش، فليس الفقر نظيفاً ولا نظافة، وليس الجوع ولا الجائع نظيفاً ولا نظافة وليس شيء من صور الشقاء وعلامات الفاقة بالنظيف ولا بالنظافة... فالنظافة التي يحبها الله كما أخبر على لسان نبيه لا تخرج بكل تفاسيرها عن الكمال المطلق – أي الكمال في الماديات وفي المعنويات – والكمال هو بلوغ ذروة الشيء أو مقاربتها أو الحصول على أحسن فروضه ومعانيه. فلا تعد الحياة الإنسانية نظيفة وهي تتلوى تحت ضربات الفقر والجوع والمسكنة والعوز والمرض والإرتباكات المادية... ولا تعد نظيفة وهي عاجزة عن بلوغ حاجاتها الضرورية – بله الكمالية. فتكاد كلمة النظافة تكون مرادفة من حيث المعنى العام لكلمة الجمال وإن كان يبدو في الظاهر أن بينهما فرقاً كبيراً.

ومن الروايات الجميلة أيضاً الدالة على مقدار فهم نبي الإنسانية الأعلى للحياة ولقيمة الحياة، وعلى ذهابه فيها مذهب السمو والتسامي الذي لا حد ولا غاية ينتهي عندها قوله عليه السلام: (إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها

http://www.ithar.com

ويكره سفسافها...) ولو أن أمة من الأمم التي تعبد الحياة والتي تريد أن تنتزع منها أفضل ما في طاقتها وأجمل ما في إمكانها من عهدت إلى جميع فلاسفتها وشعرائها بأن يضعوا لها أجمل العبارات وأقواها على ازغيب افرادها وجماعاتها في الحياة وحثهم على أن يخرجوا منها بأكبر نصيب ويأخذوا منها أعظم مقدار ممكن لما استطاعوا أن يجيئوا بأعظم ولا أجمل من هذه الألفاظ الصغيرة الكبيرة.

وفي حديث آخر: (إن الله يكره البؤس والتباؤس.) والبؤس والتباؤس معروفان. أعاذنا الله منهما وممن دعوا إليهما... فالبؤس إذن مكروه، والتباؤس – وهو إظهار البؤس والتخلق به وتكلفه – مكروه أيضاً، فالمظهر والحقيقة مكروهان. فقد يكون الرجل بائساً في نفس الأمر ثم قد يتظاهر ببؤسه وقد يخفيه، وقد يكون متبائساً وهو في نفس الأمر بائس أو وهو غير بائس. والرجلان يكرههما الله ويمقتهما.

وإن من استطاع أن يدرس سيرة النبي الكريم وحياته وشريعته دراسة نافذة ليستطيع أن يدرك بسهولة ويسر أنه كان قد بلغ في إدراك الجمال وتصوره – أي جمال الحياة كلها – وفي الإيمان به مبلغاً قد يكون هو آخر ما تصل إليه الإنسانية يوم تبلغ رشدها ويوم تنجاب عنها كل هذه الغوايات والعمايات التي تنقلت معها منذ وجودها حتى يومنا هذا. وقد كان عليه السلام مثالاً أعلى لجمال الرجولة. فكان قوياً جداً حتى إن أعظم وأقوى رجل عرفته العرب – ويسمى ركانة – صارعه فصرعه النبي مرات فتعجب الناس بل تعجب ركانة نفسه، ثم آمن به خضوعاً لقواه الجسدية والعلمية... وقد عرضت لأصحابه يوم الخندق صخرة كبيرة شديدة فعجزوا عن زحزحتها وعن تحطيمها فشكوها إليه عليه السلام فأخذ المعول فضربها به فعادت كثيباً مهيلاً.

وكل الذين وصفوه وصفوه بالقوة وسلامة التكوين. والرسالة التي أداها، والأعمال التي نهض بها وأنجزها دالة قطعاً على ذلك. فإن الإعمال الجسيمة لا يستطيع أن ينهض بها نهوضاً كافياً إلا من كمل خلقه واشتد بناؤه وعظمت قوته.

وكان رائع النظر جميل الطلعة، وكان كل عضو من أعضائه قد سوى تسوية لا يقال معها: ليته كان كذا أو كذا. وما من إنسان وقع بصره عليه إلا هابه

وأعظمه وراعه خلقه. وكان منظره من الشفعاء وله وللإيمان به. ومن النادر جداً – ويمكن أن يقال: ومن المستحيل جداً – أن تؤمن الأمم والجماهير لزعامة من نقص خلقه أو شاء تركيبه... ولو لم يأتنا نقل واحد في أوصافه لما كان لنا بد من الحكم له عليه السلام بالقوة والجمال والكمال، لعلمنا أنه قد قام بهذه الرسالة وقاد تلك القيادة – لعلمنا بأن مثل هذه الرسالة وتلك القيادة لا يمكن أن يقدر على حملهما إلا من كان قد أخذ من الأوصاف الكاملة من الناحيتين المادية والمعنوية ما شاء. فلسنا محتاجين لمعرفة ما قلنا عنه وعن حقيقته إلى الأخبار التي يختلف الرواة في نقلها وفي ألفاظها وصحتها.

وكان أيضاً لا يحب من الحياة إلا الجميل ولا يقبل إلا الجميل: فكان يحب الأصوات المنغمة الملحنة الجميلة ويمقت ما عداها، فكان يحب التغني بالقرآن ويأمر به أمراً شديداً ملزماً ويقول (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) ويقول: (ما سمع الله لشيء مثل سماعه لنبي يتغنى بالقرآن) ويقول: (زينوا أصواتكم بالقرآن)، وسمع أحد أصحابه يقرأ بصوت جميل فوقف يستمع إليه. وقد أثنى عليه.

وكان يستحسن الإسم الحسن وينكر الإسم المنكر ويغيره ويحب أن يسمع الكلمة الجميلة المتفائلة المشجعة والحاملة على التفاؤل. وقد أنزل الله عليه الأمر بغض الصوت وبإنكار الصوت الأجش القبيح الذي لا فن فيه ولا تزيين ولا مقاطع مخبراً أن أنكر الأصوات هي أصوات الحمير.

وكان يرضى جداً الطيب ويحبه أشد الحب وينفق عليه الشيء الكثير ويأمر الناس به وبأن يحبوه ويقبلوه، بل لقد أوجبه عليهم إيجاباً أسبوعياً وأمرهم أن يصيبوا منه كل يوم جمعة. وكان لا يمر بمكان إلا عرف أنه مر لما ينفح منه من الطيب.

وكان يحب المنظر الحسن ويستعيذ من كآبة المنظر كما يستعيذ من الكفر والضلال والشرور.

ومن قدر له أن يطلع على أوصافه لنعيم الجنة وعلى ما فيها من جمال لم تر العيون ولم تسمع به الآذان ولم يخطر على القلوب ثم استمع إلى هذه الأوصاف التي أنزلها الله عليه في كتابه علم حقاً كيف كان يسمو في فهم الجمال سمو يعجز عنه وعن لحاقه أبرع خيال وأجمل تصور... وقد رووا عنه هنا أنه عل

http://www.ithar.com

السلام قال (التمسوا الخير عند صباح الوجوه – أو عند حسان الوجوه.) وهذا الحديث روي من طرق كثيرة عن جماعة ذوي عدد من الصحابة. وقد تكلم الرواة فيه كلاماً كثيراً وصححه بعضهم وألف أحدهم فيه رسالة سماها (تحسين الطرق والوجوه، في قوله اطلبوا الحوائج عند حسان الوجوه.)

وكان أيضاً يحب من المطعومات ما مذاقه حسن وما عاقبته كذلك. فيحب اللحم واللبن والعسل والحلوى والطيور والفاكهة والبر والماء البارد النقي – أي يحب أطيب الطيبات – ويبغض ما خلا ذلك مما لا يحسن عاقبة أو مذاقاً أو قيمة.

وكان يحب الملمس الناعم فيثني على حرير الجنة وعلى لينه وحسنه. فكان لا يقبل لحاسة من حواسه إلا الجميل الحسن، إذن لأنه كان سليم الحواس قويها صحيحها.

ومن أوصافه التي حكاها القرآن قوله "ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والإغلال التي كانت عليهم." والطيبات لا تخرج عن أن تكون كل ما طاب مذاقاً وعاقبة من المأكولات والمشروبات والمسموعات وجميع المحسوسات على إختلاف ألوانها... والخبائث هي المستكرهات من ذلك. أما الإصر والأغلال التي كان عليه السلام يضعها عن أتباعه والمؤمنين به فهي تلك القيود الجهنمية التي تفرض الحرمان الأدبي والمادي على الرقاب والألباب! ولا يمكن أن يتصور الإنسان اليوم إنسانية أرقى وأفضل من هذه الإنسانية التي وضع محمد عليه السلام حدودها وآساسها وفتح لها طريقها.

وهذا كله – وسواه كثير – يدل دلالة قاطعة على أنه قد سما في إدراك الجمال وتصوره سمواً هو آخر ما ستبلغه الإنسانية.

ويشهد لذهابه في حب الجمال مذهب الكمال أنه كان دائماً يحتضن الطبيعة ويحنو عليها ويعمل على إجتلائها وعلى الخلوة بها! ها، إنني أراه الآن عليه السلام متسللاً من خدعة نصف الليل أو بعده قليلاً أو قبله بعد أن عقد الكرى على الأجفان... وها هو ذا خارج من حجرته برفق وهون خشية أن يوقظ أهله. وها هو ذا مسرع إلى الخروج من المدينة تاركاً وراءه المباني والبيوت، ميمم البقيع أو غيره... ثم ها هو ذا شاخص ببصره النافذ إلى السماء الصافية وإلى ما انتظم على صفحتها من نجوم متلألئة تبعث الهدوء والإشراق إلى العقل وإلى القلب... إنه واقف في الظلام الرائع. إن النسيم اللطيف الخفيف ليمر على وجهه المشرق

بالأمل والجمال فيلامسه ملامسة خفيفة فيخفق قلبه بالسرور والرضا وبالأمل الوضاء... إنه في الصحراء... إنه يناجي السكون والظلام والنسيم والسماء... إنه يخاطب ما حوله بلغة هي فوق الحروف والألفاظ. إنها لغة تموت عندها الألفاظ والحروف. إنه يرى كل شيء جميلاً لأنه هو جميل. إنه يدرك من جمال ذلك بقدر جمال نفسه ومزاجه. إنه لا يرى هناك قبيحاً لأن نفسه ليس فيها قبيح، والمرء إنما يرى الأشياء بنفسه وطبعه، فكن جميلاً تر الوجود جميلاً. إنه يرى في الكواكب فوقه الإشراق والإرتفاع والنظام والدوام فتمتلىء نفسه الكبيرة بهذه المعاني ويذهب تصوره لها إلى أن رسالته يجب أن تشرق إشراقها وترتفع إرتفاعها وتدوم دوامها وتنتظم إنتظامها! إنه يغمره من هذا الإشراق والإرتفاع والإنتظام والدوام ما يرفع عن نفسه الحدود والقيود والعوائق والموانع... إنه يقفل من هذا المشهد الرائع معتقداً أنه لا شيء يستطيع أن يقف في طريق الجمال الذي تزود به مما شهد ورأى والذي قفل به عن أن يتم وعن أن يأخذ طريقه إلى الوجود... إنه رأى قمراً واحداً وسع نوره الكون وشهد سماءً واحدة قد أظلت الوجود وإنه الآن ليرى قلباً واحداً يستطيع أن يتسع للوجود وأن يملأه ضياء وحرارة. إنه يشاهد إنساناً واحداً يقدر أن يحمل هذا القلب.

ها هو ذا قافل، وها هو ذا يدخل المدينة يشرق عليها لتشرق هي على الدنيا... إنه لا يستطيع فراق الطبيعة لأنه لا يستطيع فراق الجمال... إن كل شيء فيها يروعه جمالاً، إن الليل والنهار والظلام والضياء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والكسوف والخسوف والرعد والبرق والغيم والصحو والرياح والنسائم والجبال والسهول والأنهار والغدران وكل النباتات والحيوانات وكل ساكن ومتحرك؛ إن كل شيء من هذا ليأخذ بلبه وببصره ويلهمه الجمال... لقد وسعت روحه الوجود كله، وإن دعوته ستتسع للإنسانية كلها لأنها جمعت فضائل الإنسانية كلها.

لقد بدأ رسالته بالخلوة بالطبيعة وبمناجاتها فوق غار حراء، وختمها بمناجاتها أيضاً وهو في حجر عائشة بينما كان يجود بأنفاسه! فلقد كان في تلك الساعة شاخصاً ببصره إلى السماء لا يحوله عنها هول ولا أهل ويقول: (اللهم في الرفيق الأعلى.) إنه لم ير في الموت ذلك الشيء المرعب المفرق بين الأحباب الهادم للذات! وإنما رآه رحلة سماوية ينتهي منها إلى عالم كله النور والجمال

http://www.ithar.com

إنه كما كان إمام النبيين فلقد كان أيضاً إمام الدالين على جمال الطبيعة المستمتعين به، وإنه كما كان أعظم من نبهوا إلى جمال ما هو فوق المادة ووراء المادة فلقد كان أيضاً أعظم من نبهوا إلى جمال المادة وعظمة المادة... ولا بد أن يكون القرآن النازل عليه عليه السلام في تسبيح الجمادات والأشياء كلها وفي سجودها وعبادتها لله دالاً على بلوغه الغاية في تصور جمال هذا الوجود وحب هذه الطبيعة وإدراك ما فيها من محاسن ووجوه مشرقة باسمة.

إن القلب والعقل أبداً متصاحبان متلازمان: فصاحب العقل الكبير لا بد أن يكون قلبه كبيراً، وذو القلب الصغير لا محالة من أن يكون عقله كذلك صغيراً... لقد ثبت أن عظماء الرجال قاطبة كانوا يمتازون أبداً بحواس صادقة قوية وعواطف نادرة تدرك من الجمال ما لا يدركه الآخرون العاديون، وتذوق في إدراكها ما لا يذوقون. وثبت أنهم كانوا جميعاً فوق الناس في عواطفهم كما كانوا فوقهم فيما فاقوهم به. إن رسالة كل إنسان مقدرة ومقدر ما ينتظرها من النجاح بما يحمل ذلك الإنسان من حب للجمال ومن شعور به. والإنسانية كلها رهينة بما تتصوره من أهداف وأماني: فإن كانت تلك الأهداف والأماني قد صورها الخيال المبدع على أبدع وأروع ما يمكن من صور الجمال جاءت تلك الإنسانية عظيمة مبدعة، وإن كانت أهدافاً سخيفة مظلمة قد ولدها وشوهها الخيال المظلم المضطرب فلن تكون تلك الإنسانية شيئاً... إن إنساناً واحداً أو شعباً واحداً لو فقد هذا الإحساس بالجمال فقداً تاماً لوقف مكانه، ولما استطاع أن يعمل شيئاً وأن يؤدي رسالة، وإنه لن يعمل ولن ينتج إلا بمقدار ما يتصور ويتخيل من الجمال وبمقدار ما يتملكه من حب الجمال... إن الفرق بين الأمم ليكاد يكون هو الفرق بينها في شعورها بالجمال وفي مذاهبها فيه. إن ذلك الإنسان التافه القانع بالعيش التافه وبالوجود التافه لإنسان قد برىء قلبه وتصوره من حب الجمال، ولو أنه تزود بشيء منه لدفعه ذلك إلى الأمام وإلى الوجود بقدر ما فيه من طاقة وحرارة.

ولقد كان عليه السلام يعمل على تبسيط معاني الإنسانية وعلى إعطائها أعظم ما يمكن من رغبات مباحة أملاً في أن يجد كل إنسان في كل زمان في إنسانيته الجامعة الجميلة ما يرضي كل جانب إنساني فيه وما يشبعه وما يقنع ميوله الصالحة السليمة، لأنه عليه السلام كان يعلم – وطرق علمه غير طرق علم

العاديين من أمثالنا – أنه إذا ضيق على الإنسان رحاب حياته ونزعاته ووقف في سبيلها أو في سبيل شيء منها لم يكن إنساناً عاماً، ولم يكن صالحاً لقيادة الإنسانية كلها في جميع مراحل وجودها المتطورة المتقدمة... هذا من ناحية، وناحية أخرى أن الإنسانية إذا انتقصت وضيقت وحرم عليها معنى من معانيها وحقيقة من حقائقها جاءت إنسانية ناقصة مسروقة المدلول والمفهوم! وإذا كانت كذلك كانت عاجزة عن القيام بوظيفتها الكبرى قياماً صحيحاً سوياً. وقد لوحظ – ولا يزال يلاحظ – وعلم النفس يقرر بمباحثه صدق هذه الملاحظة – أن الجماعات التي تضيق عليها رغباتها وتحرم من ميولها الطبيعية حرماناً هو العنت والإرهاق تجيء أبداً عاجزة في عقولها وقلوبها وعواطفها ومشاعرها عن اللحاق بالجماعات الأخرى التي أطلقت ميولها من الأغلال والحرمان. هذه حقيقة يقررها علم النفس والإستقراء والتاريخ.

ومن إرشاداته عليه السلام الرامية إلى وضع الإنسانية في قالبها العام الجامع غير مضيق عليها ولا محرومة الحرمان الذي يبعث اليأس والقنوط والضعف، لأنه يهدم القوى ويقف في سبيل النمو – أن عائشة زفت فتاة إلى رجل من الأنصار فقال عليه السلام: (لو بعثتم معها لهواً فإن الإنصار يعجبهم اللهو – وفي رواية – هل أرسلتم معها من يغني؟ إن الأنصار قوم فيهم غزل) ودخل مرة على عائشة وعندها فتيات يغنين فجلس وهن يغنين فدخل أبو بكر فزجرهن فقال رسول الله (دعهن فإن لكل قوم عيداً.) ودخل يوماً آخر على امرأة فجلس وبين يديها جوار يضربن بالدف وينشدون قصائد فطفق يستمع لهن. ولما قدم المدينة قام جماعة من الأحباش يلعبون ألعاباً حبشية فأنكر عليهم عمر فنهى عمر وأقرهم على لعبهم وأشرك زوجه عائشة في النظر إليهم وإلى ألعابهم. وقدم ذات مرة من سفرة فجاءته امرأة وقالت لقد نذرت إن ردك الله صالحاً لأضربن بين يديك بالدف فقال: (إن كنت نذرت فاضربي.) وقد كان فتيات الأنصار يتلقينه بالأناشيد مثل نشيد (طلع البدر علينا) فيسر بذلك ويقره. وكان إذا كان في سفر أمر منشداً ينشد بين يديه... وأعجب من ذلك كله أنه سابق زوجه عائشة مرات، ولا يدري أين تكون حلبة السباق! إذ ليس من المعقول ولا الممكن أن تكون في حجرتها.

ومن السهل أن نفهم أنه كان كذلك وإلا لما كانت شريعته وأوامره ونواهيه

http://www.ithar.com

وحياته كما نعلم، ولما أمكن أن ينجح ذلك النجاح المنقطع النظير...

فهؤلاء الذين وقفوا حياتهم على إمتداح الشقاء والفاقة والبؤس والبذاذة والجوع وسوء المنظر وكآبته، وعلى إمتداح الأمراض والعيوب البدنية والذهنية، وعلى إمتداح كل نقص وفساد، وعلى إمتداح الحرمان والتحريم – هم عاجزون عن فهم الإسلام وعن فهم نبي الإسلام، وهم مناقضون لكل ما جاء به بعيدون عنه. وإن بعدهم عن ذلك لا يقل عن بعد شرك الجاهلية عن توحيد الدعوة المحمدية، وإن التباين والمناقضة في هذا ليسا دون التباين والمناقضة في ذاك. والأمر يرجع في المسألتين إلى أن دمامة تنازع جمالاً، وإنحرافاً يقاوم إعتدالاً، وشراً يريد أن يطغي على خير.

* * *

شاعت هذه الأقاويل المحطمة بين المسلمين، وامتلأت بها الكتب والمعتقدات والقلوب، وفاضت على كل الألسنة وطعم بها كل تعليم، وصارت ركناً من أراكين الديانة الإسلامية، بل عدت أعظم أراكينها كما يزعم الجاهلون، فأصبح لها من النتائج ما يفوت الإحصاء وإن كان يجمع هذه النتائج كلها شيء واحد، هو هذا الإندحار العام الذي أصابهم في سائر أقطارهم. وكان أعظم هذه النتائج شيئان: أحدهما أن الهمم قد أصيبت بالفتور الشديد أو بالخدر العام أو بالشلل الفتاك، فصارت غير قادرة على أن تعمل شيئاً كبيراً له قيمة أو شيئاً يحتاج إلى القوة المبتكرة والنشاط المبدع... وأما الشيء الآخر فهو أن هؤلاء الذين ابتلوا بهذه التعاليم قد جاعوا كما فرض عليهم أن يجوعوا، وكما حُدّثوا أن الجوع هو الإسلام، وهو سنة الأنبياء والصالحين. ولأنهم عجزوا عن أن يكونوا غير جائعين لأنهم كانوا غير مستطيعين أن يكسبوا الثراء للشلل الذي أرهق هممهم وقواهم – وهو أيضاً أنهم قد مرضوا كما طلب إليهم أن يمرضوا وكما حُدّثوا أن المرض من النعم وأن الصحة من النقم – ثم هو أنهم قد أهملوا أبدانهم، أو حاربوها وحاربوا رغباتها وحاجاتها، فصار عاقبة هذا كله أن جاءوا خلقاً هزيلاً غير تام التكوين ولا صحيح التركيب ولا سليم البناء، فأصبحوا عاجزين عن مساواة الإنسان القوي السوي وعن مباراته. فغلبوا على أمرهم هذا الغلب الشنيع.

أما الأول فإن الطفل يقع أول ما يقع في بيئة كلها السخط على المال وعلى الحياة

وعلى النشاط في الحياة من أجل الحياة وعلى الترف والسعادة... وكلها الذم لأصحاب المال والدنيا، ولمن يحيون حياة صحيحة سعيدة، ولمن ينشطون للعمل، ولمن يصيبون الترف والعيش الهنيء... وكلها الثناء والمديح للفقر والإفلاس والشقاء والفاقة والكسل والعجز، أو لما سموه في لغتهم الزهد أو القناعة، وللفقراء والمفلسين والكسالى القانعين العاجزين الزاهدين - يعزز هذا كله تلك الحياة التافهة القذرة التي يحياها بين والديه الفقيرين التافهين، وذلك الشقاء المضروب على كل لون من ألوان الحياة.

يلقن هذا كله في المدرسة، ويلقنه في البيت، ويسمعه في المجتمعات والنوادي والأسواق، ويقرأه في الكتب، ويحيط به من كل جهاته... فهو إذن لن ينجو من هذا التلقين وهذه التعاليم كيفما كان وكيفما ذهب، لأنه إن كان ممن دخلوا المدرسة وممن يقرأون الكتب فسوف تعترضه وتقف في طريقه في كل الجهات التي ذكرناها: المدرسة والبيت والمجتمعات والجمعيات والنوادي والأسواق وحيث ذهب، وفي الكتب وفي المساجد من أفواه الخطباء - وهذا أكثرها وأخطرها، فهي لن يفلت منها إنسان ولا إنسانة. لأنها من الثقافات العامة - أي إنها ثقافة شعبية بلغت كل فرد وولجت كل بيت وخالطت كل إعتقاد... فما كتبه الشيخ الغزالي مثلاً في كتاب الإحياء قد وصل كله أو جله إلى كل مسلم على وجه الأرض، إما مباشرة بقراءة الكتاب، وإما بواسطة أو بوسائط كثيرة متعددة، إما سماعاً من خطيب أو واعظ أو متكلم كائناً ما كان - وإما بقراءة كتاب نقل عن الإحياء. والإحياء أردنا به هنا المثل وإلا فإن كل كتاب من هذه الكتب هو عندنا كالإحياء، ومؤلفه كالشيخ الغزالي.

وقد لوحظ أن الذين يتلقون علومهم كلها في كل مراحل التعليم في المعاهد الأجنبية التي لا تؤمن بهذه التعاليم، بل التي تنكرها وتشيد تعليمها وتربيتها على مخالفتها: لوحظ أن هؤلاء أيضاً لا يسلمون من هذه التعاليم الوبيلة، وأنهم لا يستطيعون أن يبرأوا منها برءاً صحيحاً وأن يخلصوا وأن يتخلصوا من جميع آثارها ويتطهروا من جميع أعراضها وأمراضها. وذلك لشيئين:

أحدهما أنهم قبل أن يدخلوا المعهد الأجنبي الذي دخلوه قد لقنوا في البيت وفي البيئة كلها وفي كل ما يحيط بهم تلك المبادىء الحرمانية تلقيناً قد يكون غير مقصود ولا ملتفت إليه، ولكنه قد يكون أيضاً بمثابة الغرس في التربة المهيأة

للإنبات، أو بمثابة النقش على الحجر الذي يبقى ما بقي الحجر. وقد قيل إن تلك السن – وهي ما بعد الولادة إلى بلوغ السنة العاشرة – هي أخطر مرحلة في حياة الطفل، إذ يكون حينذاك متيقظ الحس، شديد التكيف والإنطباع بما يدور حوله وبما يراه ويسمعه ويلقنه، حتى ليصبح ذلك كله حقائق عنده أو طبائع يعسر إنفلاته وخلاصه منها. وملكة التقليد في تلك السن قوية جداً مسيطرة عليه سيطرة كاملة، بل إن كل أموره قائمة إذ ذاك على التقليد صادرة عنه مقصودة به. فكل ما يراه وما يسمعه وما يعمل حوله يؤثر فيه تأثيراً لا يمكن المماراة فيه ولا يمكن إغفاله – بل تأثيراً لا يقل عن تأثير العوامل الطبيعية في جسمه الرخص وتكوينه اللدن وبنائه الهش.

ثم إن جميع ما يمثل حوله ينتقل إلى خزانة العقل الباطن وينطبع فيها إنطباعاً شديداً جداً ليظل كل الحياة مهيمناً عليه في كل تصرف يأتيه وعمل يعمله. والعقل الباطن شديد الإحساس، قوي الأخذ عما أمامه، محافظ على خزائنه محافظة صادقة ليرجع إليها وقت الحاجة، فينفقها على الأعمال والأزمان المقبلة إنفاقاً منظماً. فيكون لها دخل في كل عمل وفي كل فكرة وفي كل إتجاه. بل يكاد الإنسان بمشاعره وأعماله يكون مقوداً بها قيادة لا يفلت من سلطانها ورقابتها في حالة من حالاته... ومن أجل هذا كله – ومن أجل غيره أيضاً – أكثر علماء النفس والتربية من النصائح والإرشادات الموضوعة لخفارة حس الأطفال وملكة التقليد فيهم، وخفارة عقولهم الباطنة من التلوث والفساد بما يمكن أن يصنع على مرأى منهم، وبما يمكن أن يسمعوا أو يلقنوا أو يعلموا... وقد وضعوا في هذا كتباً كثيرة جداً أقامت فناً وعلماً خاصاً واسع الأرجاء متعدد المباحث والنظريات... وقد علم أن كل التقاليد الصحيحة والباطلة التي تصبح لدى الفرد ولدى الجماعة قوة غالبة لا تقاوم ولا تناقش، مهما كان نصيبها من الضعف والخطل، إنما تنشأ وتخلق في تلك السن أو ما يقرب منها، متركزة تركزاً عجيباً في العقل الباطن، هازمة في المستقبل كل برهان شعوري، قاهرة كل حجة تقوم على بطلان تلك التقاليد وضررها وفسادها، حتى إن أعظم عبقري يجتاح المجتمعات والتقاليد ببراهينه وأفكاره الحرة الصارمة التي يضعها في كتبه ومقالاته ومحاضراته وكل مباحثه، يكون في حياته العامة وفي إتجاهاته الخاصة العملية خاضعاً خضوعاً غريباً لتلك التقاليد والعادات التي ورثها من

الصغر واختزنها في منطقة اللاشعور عنده، بحيث يصير مثل أجهل إنسان وأضعفه في العجز عن التخلص منها، بل قد يكون أمامها أضعف من الجاهلين. وهذا هو سر قوة التقاليد وسر ركوع الخاصة والعامة لها... ولهذا فإننا نجد إختلافاً كثيراً جداً في هذه التقاليد والعادات بين شعوب وأمم لا تختلف في علومها وعقولها وبراهينها، ولا في الكتب التي تدرسها وتدرسها. فالشعوب تتفق في العلوم والنظريات وتختلف في التقاليد والعادات. والوجه في هذا هو ما ذكرنا. هذا هو أحد الشيئين اللذين يجعلان من يأخذون علومهم وثقافتهم عن المعاهد الأجنبية غير خالصين من هذه الآراء الهدامة التي تركها لنا هؤلاء الشيوخ الهدامون.

وأما الشيء الآخر فهو أن هؤلاء الأطفال الذين يوضعون الوضع المذكور أثناء الدراسة لا ينفصلون إنفصالاً تاماً عن بيئتهم المسممة الملوثة، فيظلون بين عاملين مختلفين يتنازعانهم: عامل البيئة الموبوءة، وعامل المدرسة السليم أو القريب من السلامة. فيأخذون من هذا ومن هذا، ويخضعون تارة لحكم هذا العامل وتارة لحكم العامل الآخر، فيكونون أحياناً أقرب إلى الصحة والسلامة، وأحياناً أقرب إلى المرض والإعتلال. وربما كانوا أدنى إلى الإعتدال من الآخرين الذين لم يعلموا تعليمهم، وربما كانوا متناقضين مضطربين مشوشين، مثلهم في هذا مثل من وقع بين عاملين مختلفين متنازعين قواه وتفكيره، فيذهب بعضه – أو تارة – مع أحد العاملين بدون أن يصل إلى غرضه، ويذهب بعضه الآخر – أو تارة – مع العامل الآخر بدون أن يصل أيضاً إلى غرضه، لأنه لن يصل إلا إذا استخدم قوته كلها وعمله كله في إتجاه واحد وعمل واحد. وقد يظهر بوضع آخر بحيث يتمانع العاملان، فإذا شاء الإتجاه مع أحدهما قام الإتجاه الآخر ممانعاً معارضاً، وهكذا، فيبقى المرء بينهما معلقاً متردداً حائراً، مثله مثل ذلك المصاب الحزين الواقف بين عامل التجمل والتجلد، وعامل الأسى والمصيبة، الذي قيل في تصوير حاله أجمل تصوير وأبرعه:

الحزن يقلق والتجمل يردع
والدمع بينهما عصي طيع
يتنازعان دموع عين مسهد
هذا يجيء بها وهذا يرجع

http://www.ithar.com

وقد شاهدنا أقواماً كثيرين من هذا النوع. ومصير هؤلاء الفشل المحتوم. وإن حالتهم هذه تشبه حالة من يريد أن يذهب إلى جهة معينة، ولكنه بدل أن يسير قصداً في الطريق الذي يوصل إلى الجهة التي يريدها يسير كل يوم عدة أميال في جهات مختلفة ثم يرجع إلى المكان الذي بدأ منه السير قبل أن يصل ودون أن يبقى في إتجاه واحد! ومثل هذا تضيع قواه ثم لا يحصل على شيء. وهذه شر حالة يبتلي بها الإنسان.

ومن الملاحظات الصادقة في هذا الموضوع أن قوماً يولدون وينشأون في هذه البيئة التي تتوارث أقاويل هؤلاء الشيوخ، تصادفهم ظروف غير عادية، فيلحدون إلحاداً نظرياً صريحاً، بحيث لا يكتفون بإنكار الأفكار الزهدية الحرمانية، بل ينكرون فكرة الأديان جملة، ويجاهرون بهذا الإنكار ويعتقدونه، ولكنهم – وهذا عجيب في الظاهر – يبقون متعلقين متأثرين بالشيء الكثير من هذه الخرافات في كراهة الدنيا وغيرها، دائنين لها، عاجزين عن الخروج من ربقتها خروجاً شاملاً! ومن ثم يصبحون غير لاحقين ولا مسايرين من هم في الجانب الآخر من الركب الإنساني المهطع إلى غايته الكبرى.

وتعليل هذه الحالة سهل يسير. وذلك أن هؤلاء إنما ألحدوا وكفروا بهذه الخرافات نظرياً فقط، أما الأعمال والتقاليد فإنها تظل خاضعة لما ورثت ولما تكيفت به في حالة الصغر والطفولة، يمدها العقل الباطن بالمدد تلو المدد، مما اختزن وحفظ. فيصبحون في عقولهم وتفكيرهم غيرهم في أعمالهم وإتجاهاتهم وتقاليدهم وعاداتهم، وقد يسمون ما لقنوه في حالة الطفولة – على إعتباره مبادىء دينية بعد كفرهم – نظريات أو علميات أو مبادىء إجتماعية أو غير ذلك! كما أن الإنسان الذي يعتقد أن النجاح والفشل إنما هما بالقضاء والقدر لا بالأعمال والإجتهاد، قد يكفر بالقضاء والقدر كفراً تاماً، ولكنه قد يبقى مؤمناً بهما معنى، مثل أن يبقى معتقداً بأن النجاح والسقوط إنما هما بالحظوظ والجدود والمصادفات لا بالأعمال ولا بالإجتهاد. فيصبح التغيير عنده في الأسماء دون الحقائق... وقد يرث إنسان عبادة القبور والأموات ثم يكفر بها لظروف ما، ولكنه قد يبقى مؤمناً بها على إعتبار آخر ونحو آخر، كأن يتعلق بمناجاة الأرواح وبقوة الأرواح، معتقداً أن التجربة والبحث العلمي هما اللذان هدياه إلى ذلك. فيصير من إسم، إلى إسم، أما الحقيقة فباقية كما هي! وقد يكفر إنسان بالدنيا وبالعمل

الجاد لها، مسمياً كفره زهداً وورعاً، ثم قد يلقى أموراً تجعله يكفر بهذا الزهد وبهذا الكفر، ولكنه قد يبقى تاركاً الدنيا أيضاً عاجزاً عن العمل فيها ولها، غير راغب فيه ولا فيها، مسمياً عمله هذا قناعة وسمواً على المادة وسمواً في الروح وإرتفاعاً على الأغراض الدنيا الصغيرة الحقيرة. وهكذا يفعلون في كل شيء: يتركون الأسماء ويتمسكون بالمسميات! وهذا من أغرب ما يصاب به الإنسان في حياته وتصرفه.

* * *

أوجدت هذه الأقاويل بين المسلمين وبين الدنيا هوة عميقة ونفوراً عاماً، فصاروا لا يعملون لها وفيها بإخلاص وإجتهاد وإقبال، وصاروا يتناولونها إذا تناولوها ببعض أيديهم، وبعض قلوبهم، وبعض عقولهم، وبعض حبهم، وبعض أعمالهم... فصاروا لا يدركون منها إذا أدركوا إلا أتفه ما فيها وأحقره وأصغره، على قدر ما وهبوها من الإخلاص والحب والعمل والعناية... وهكذا كل شيء في هذا الوجود إنما يعطي بقدر ما أخذ.

إن الإنسان العاقل لن يقبل على الشيء ولن يمنحه جده وقلبه وعمله بشغف ودأب ومثابرة ومصايرة إلا بشروط واضحة: أن يعلم أن الإقبال على هذا الشيء حسن في رأيه هو، وحسن له، ثم حسن في رأي المجتمع الذي هو فيه، وفضيلة من فضائله؛ ثم أن يعلم أن عاقبة ذلك سليمة طيبة لا لوم فيها ولا عقاب بل ولا عتاب، ثم أن يعلم بعد هذا كله أن ترك هذا الشيء وترك العمل له ذنب من ذنوب المجتمع ونقيصة من نقائصه وجريرة من جرائره... إن الإنسان إذا علم هذا كله أصبح من الممكن، بل أصبح مما هو في حكم المؤكد أن يمنح ذلك الشيء عنايته التامة، وأن يستجمع له جميع الأسباب والوسائل وأن يعطيه من نفسه كلّ ما فيها وكل ما عندها من استعداد ومن قوى ظاهرة أو باطنة، وأن يدأب له الدأب الواجب الناصب حتى يظفر به أجمع أو يظفر بأحسنه وأفضله، أو حتى يتعذر فيه الإعذار الصحيح.

والمسلمون الذين اعتقدوا أقاويل هؤلاء الشيوخ يرون أن العمل للدنيا بكل إخلاص وإجتهاد ليس فضيلة ولا حسناً، لا في رأيهم ولا في رأي المجتمع الذي يعيشون فيه، ويرون أن عاقبة هذا العمل وهذه الدنيا ليست مأمونة ولا حميدة لأن الله سيؤاخذهم عليه وعليها، بل سيحاسبهم الحساب الشديد ثم يعاقبه

http://www.ithar.com

على قدر ما كسبوا منها وما عملوا لها. وهم يعتقدون أن ما ينالونه منها ما هو إلا حسناتهم تعجل لهم، ولأن الدنيا في رأيهم وظنهم تجر إلى الشقاء والعذاب، لأنها تطغي، ولأنها تدفع من ظفر بها إلى الفسوق والمروق... فعاقبتها وعاقبة العمل لها وعاقبة الحرص عليها ليست بحميدة ولا مأمونة إذن... ثم إنهم لا يرون أن هجر الدنيا وهجر العمل لها جريمة من الجرائم أو رذيلة من الرذائل التي ينكرها المجتمع والتي يعاقب الله ويحاسب عليها. بل هم يرون أن هذا الهجر والإزورار عنها والكراهة لها والتقلل منها إحدى الحسنات الإجتماعية والدينية التي يشكرها الناس والتي يجازي الله عليها... بل هم يرون ذلك إحدى الفضائل الإنسانية التي تدل على السمو الإنساني... فكيف إذن يمكن أن يعملوا لها بكل قواهم وأن يبرعوا وينبغوا في طلبها وتحصيلها؟

إن من أقبل عليها منهم ودأب في تحصيلها، فنجح النجاح كله أو بعضه، صار الناس ينظرون إليه نظرات السخط والإشمئزاز والإنكار واللوم، متهمين له بالشراهة وبالحرص الذميم وبعبادة الدنيا وعبادة المادة والشهوات، زاعمين أنه إنسان مغضوب عليه، وأنه ملون معاقب محاسب حساباً وبيلاً لحرصه على ما يفنى وإعراضه عما يبقى، ولإهتمامه بالدنيا الملعونة الملعون ما فيها التي لا ينظر الله إليها، ولا ينظر إليها عباده الصالحون الأبرار! بل إن مثل هذا الإنسان قد يرى في نفسه هذا الرأي ويعتقد أنه مخطىء ملوم، لأنه ترك الزهد الذي هو حلية الأنبياء والأولياء، ولأنه شغل بالحياة الدنيا، معبودة الكافرين والآثمين الذين لا خلاق لهم... وقد يحاول التبرؤ من فعله هذا ويسأل الله أن يمن عليه بالتوبة والهداية، لينفض يديه مما لوثهما به من الإشتغال بالحطام.

كان المفروض أن يترك المسلمون الدنيا ويتركوا العمل لها البتة، ما دام هذا هو رأيهم فيها ونظرهم إليها، ولكن قاوم هذا الفرض شيء آخر – هذا الشيء هو أنهم وجدوا أن ضرورة الحياة والبقاء وغريزة حبهما تدفعهم إلى العمل، إذ وجدوا بالمشاهدة والإستقراء أن من لم يعمل فلن يعيش، وهم يريدون ويحبون بالغريزة أن يعيشوا، فوقعوا بين عاملين مختلفين: عامل الزهد والإعتقاد أن الحرص على الدنيا جريمة وذنب وشره ممقوت، وعامل الضرورة – ضرورة الحياة والبقاء. فحاولوا بغير شعور – أو بغير شعور كامل – أن يرضوا العاملين، وأن يوفقوا بينهما وأن يجمعوا بين إعطاء كل منهما طلبه وحكمه.

فأخذوا للحياة وللبقاء بقدر الضرورة – أي إنهم قاموا بأعمال صغيرة وحقيرة، تكفي لوجودهم ولوجود الحياة فيهم، ولتمسكهم بها أو تمسكها هي بهم، ثم أعطوا باقيهم الزهد والإعراض عن الدنيا، فبقوا أحياء، وبقوا فقراء. ولم يستطيعوا بضرورة وقوعهم بين العاملين أن يميلوا إلى أحد الجانبين ويتركوا الجانب الآخر: فلم يستطيعوا أن يكونوا زهاداً فقط وأن ينفضوا أيديهم من الحياة والمادة جملة واحدة ولم يستطيعوا أن يكونوا أهل دنيا وأعمال كبيرة بارعة، وأن يتبرأوا من الزهد ومن كراهة الحياة الدنيا – أي إنهم لم يستطيعوا أن يتغلبوا على أحد العاملين ويهبوا أنفسهم عاملاً واحداً، فصاروا مقسمين بينهما، وصاروا من أجل ذلك بهذه المكانة الوضيعة من المجتمع العالمي والهيئة العالمية.

فإذا حاول معترض أن يعترض وأن يقول: إنه – وإن كان رأيهم وقولهم في الحياة وفي طلب المادة والمال كما ذكر – إلا أن هذه الآراء والأقوال لا تأثير لها في إنحطاطهم وعجزهم وضعفهم، لأنه لا يوجد منهم إنسان واحد يترك الدنيا ويأبى المال رغبة في أن يكون زاهداً وعملاً بأقاويل هؤلاء الشيوخ الغابرين، بل إنهم كلهم كما شاهدنا ليعبدون المال والمادة، ويحاولون كسبهما بكل الطرق حتى الطرق المحرمة كالغش والتزوير والسرقة وبكل الوسائل... فلا تأثير لهذه الأفكار والآراء الميتة الموجودة في تلك الكتب الميتة: كتب أولئك الميتين في حالة المسلمين الواهنة الواهية الفقيرة: إذ قال قائل هذا واعترض هذا الإعتراض، قيل في الجواب: ليس هناك شك في أن المسلمين، جماهيرهم وخواصهم، يحبون المال والدنيا، ويحاولون ويتمنون كسبها ونيلها والإستزادة منها بكل الطرق حتى المحرمة منها، ولكن يجب تدبر المسألة جيداً وفهمها من كل وجوهها: ذلك أنهم يحبون الدنيا والمال بغرائزهم وشهواتهم، ولكنهم يكرهونهما ويذمونهما بأفكارهم وآرائهم وعقولهم وعقائدهم وأديانهم وأقوالهم ودعاواهم. فبالشهوات والغرائز يريدون ذلك ويطلبونه، وبالإعتقاد والدين والعقل والرأي يرفضونه وينكرونه، فتتعارض القوى والعوامل فيهم؛ فإذا وجدوا الدنيا والمادة سهلة قريبة لا تحتاج إلى عناء ولا عمل أخذوها واحتاشوها بسلطان الشهوات والغرائز والطباع بالطرق كلها والوسائل أجمع حتى المحرمة، وهذا في الأغلب كما لا يخفى. وإذا وجدوها بعيدة المنال، محوجة إلى الجد والدأب – وهي كذلك

http://www.ithar.com

في كل الأوقات والحالات ما خلا النادر الشاذ – تعلقوا بإعتقادهم ورأيهم وقولهم وبمذهبهم القائل: إن الحرص على المادة والدنيا جريمة وغواية، والقائل لهم أيضاً: إن الزهد والفقر والقناعة فضيلة وهداية؛ فيكسلون ويكلون ويعجزون عن الطلب وعن الجهاد في سبيل ذلك، فيخرج من هذا أن يكونوا حريصين على الدنيا التي تؤخذ بالوسائل المحرمة، لأنها حينئذ تكون في الغالب سهلة قليلة الإعنات والعناء، بعيدين عنها زاهدين فيها إذا كانت تطلب وتنال بالجلاد والجلادة! وهذا أعجب شيء على أنه هو الواقع الحاصل المشهود.

وقد شاهدنا الأقوام الذين يقومون بوظيفة الإرشاد وبوظيفة ذم الدنيا والتزهيد فيها يحرصون عليها كل الحرص من الطرق الملتوية القريبة الذميمة، ولكنهم ينأون عنها كل النأي إذا كانت تحوج إلى العمل الشاق المرير على من لم يرضوا أنفسهم وأخلاقهم على الأعمال وحبها.

والإنسان مركب من طباع غريبة متباينة؛ فمن طباعه التي قد تكون أصيلة فيه، وقد تكون عارضة متولدة من ظروف وأحوال نكراء مرت به في تاريخه الطويل الحافل بالعجائب والمتناقضات، محاولته الفرار أبداً من الأعمال التي تلقى عليه تبعة والتي تلزمه الكد والنصب... فإذا لم تحط به ظروف ومبادىء وقوانين وتقاليد وأشياء أخرى تدفعه دفعاً إلى إلتزام التبعات، وتحكم عليه حكماً إضطرارياً بالأخذ بالأعمال الشاقة، وتلجئه إليها إلجاء فإنه حينئذ ينكل عن النهوض، ويعجز عن القيام، ويفر من التبعات، ويجد في الكسل والإستسلام اللذة والبغية والحياة الهانئة الهادية... فهؤلاء الذين يعيشون في بيئة كلها الدعوة إلى ترك العمل والدعوة إلى الفرار من الحياة ومن التبعات ومن الجهود المضنية، مزعوماً لهم أن في هذا الترك وفي هذا الفرار الأجر والثواب والحمد والشكر من الله ومن الناس، ثم مزعوماً لهم أن في هذه الأعمال التي كلها تبعات ومشقات حساباً وعقاباً عند الله ولوماً وإنتقاداً عند الناس، كيف يمكن أن يتغلبوا على هذا كله، وعلى طباعهم الراكنة إلى الخلاص من المشقة والنصب، وأن يثبوا وثبات تلقي تحت أقدامهم الثراء والسعادة والحياة القوية الراضية؟

إن الشعب الذي نتصوره واثباً إلى الحياة بكل قواه هو الشعب الذي تتضافر كل آدابه: دينه وعقله ورأيه وتقاليده وتعاليمه وفلسفته على إستحسان هذا الوثوب وعلى الإشمئزاز من كل عاجز ناكل وزاهد قانع، وعلى إعتبار هذا النوع

من الناس آثماً ومقصراً ومجرماً، وعلى أنه لا يقل في إجرامه وتقصيره وإثمه عن سائر أولئك الأقوام الذين يعملون ما تحرمه القوانين وما تأباه الشرائع، والذين يجرون إلى قومهم ووطنهم وإلى الإنسانية أجمع الشقاء والدمار... بل يجب أن ينظر إلى هؤلاء – من حيث الإجرام والتقصير والجريرة والخيانة – محسوبين شراً من أولئك الذين يتركون مواضعهم في خطوط القتال المشبوب دفاعاً عن الحق وعن الخير والحرية وحرمات الوطن. فإن القتال في سبيل كسب الحياة الجميلة هو أفضل قتال يتصوره العقل. فمن أهمل واجبه في هذا القتال كان أشد الناس إثماً وأعظمهم جريرة.

ليس مما يدخل في الإمكان أن يعتقد شعب من الشعوب إعتقاداً دينياً وفلسفياً وأدبياً – يعلمه في المدارس وفي المساجد وسائر المعابد وفي البيوت والجمعيات وفي كل مكان – بأن العمل للدنيا وللحياة بقوة وشغف أحد الآثام التي يؤاخذ الله عليها بل التي يعاقب بسببها، ثم يعمل هذا الشعب للدنيا بهذه القوة وبهذا الشغف، غير متأثر بإعتقاداته وفلسفاته، وغير مبال بما يعلم علم اليقين بأن الله يأخذ به ويلوم عليه، إلا إذا كان من الممكن الزعم بأن المعتقدات والتعاليم والتقاليد ليس لها تأثير البتة على الأعمال وعلى الإتجاه في الحياة.. ولكن الناس يعلمون جميعاً أن مبدأ الأعمال كلها الإعتقادات، وأن العامل إنما يتجه ويسير ويعمل على مقتضى ما يوجبه له معتقده – غير أن هذا المعتقد الذي يرسم طريق العمل يجب أن يفهم أوسع وأشمل من المعتقد الديني، فليس المعتقد الديني وحده هو الذي يدفع الإنسان أمامه ويهديه ويقوده ويوجهه، بل كل المعتقدات هكذا، سواء أكانت دينية أم وطنية أم إجتماعية أم علمية أم فلسفية أم إنسانية... وإذا علم هذا – وهو معلوم بلا شك – وجب علينا أن نحارب بأ سلاح من أسلحة الحرب هذه الدعايات المدمرة لقوى الشعوب ولروح الأفر والجماعات، وهي دعايات الزهد وتفضيل الفقر والمرض والفاقة والحرمان و تلك السخافات والأباطيل التي بقيت مضللة ومخدرة الإنسانية ومعطلة مواه أحقاباً وقروناً يعجز المحصون عن إحصائها... وعلينا نحن معشر المسلـ المغلوبين على أمرنا أن ننظر إلى هذه الدعايات والتعاليم على أنها أصفاد وأغ قد مكن الجهل والغباء أعناقنا وأيدينا منها! فليس لنا مفر من العمل تحطيمها وتحطيم من صنعوها بلا رحمة ولا شفقة، كما نهض محمد

http://www.ithar.com

السلام وكما نهض قبله إخوانه من الأنبياء والمرسلين، محطمين وواضعين جميع الأغلال والأصفاد والآصار التي لقوها في طريقهم وفي طريق الإنسانية التي جاءوا لهدايتها وإنقاذها من جميع ما صنعه الشر والجهل.

أما النتيجة الأخرى لشيوع هذه الأقاويل المثنية على المتربة بكل معانيها، وعلى الشقاء بكل ألوانه حتى الجوع والمسغبة، فإن المكسلمين أهملوا أبدانهم من هذه الناحية إهمالاً عجيباً، ولا يزالون يفعلون ذلك أو يرون حسنه. وصاروا لا يرون أن للأبدان حقوقاً يجب أن تؤدى ووقوداً يجب أن يقدم. فجاءت عاجزة عن القيام بوظائفها، عليلة هزيلة لا تدفع شراً ولا تكسب خيراً كبيراً.

وقد وضع هؤلاء الشيوخ فلسفة للجوع ولحرمان الجسد من حاجاته ما أعجبها وما أكذبها! فأحد هؤلاء يقول في كتاب له معدود من خيرة الكتب ما معناه: إن الإنسان إذا أجاع بدنه وضربه بالحرمان العام: فمنعه النوم والراحة ضمر وضؤل وخف وزنه فاستطاعت الروح حينئذ أن تتغلب عليه وعلى ثقله... فحلقت إلى السماء وذهبت تطوف حول العرش وحول سدرة المنتهي! فكرعت هناك في المعارف والعلوم والكشوف وكيف شاءت! وصارت شفافة هفهافة، لا تحجبها الكثافة، ولا يعوقها عن الوصول غلظ المادة ولا بعد المسافة... فأصبحت عليمة بطبعها، غير محتاجة إلى التعليم وإلى التلقين. أما إذا أشبع جسمه وأراحه فإنه يربو ويزكو فيثقل بالروح ويقعد بها عن الطيران والتحليق، فتضحي ترابية عاجزة عن مفارقة التراب والمادة عاجزة عن التخلّص من قوانينها... فتصبح جاهلة بطبعها لأن مكانها التراب والمادة، وهما مكان الجهل... هذا نموذج من فلسفة الجوع والعذاب، عند هؤلاء الأوشاب.

وقال أحدهم في كتاب معروف مقروء: (إنما القصد من الجوع كسر النفس وتقوية القلب وتبييضه. فإن الجوع يذيب شحم القلب ويقلل دمه، فيبيض ويرق ويصفو فيستعد بصفائه لقبول نور الذكر وأنوار المعاملات الشرعية، والواردات الغيبية، ثم تنعكس الأنوار من مرآة القلب إلى أرض النفس.)...

وقالوا أيضاً: (إن أصول التصوف تدور على أربعة أشياء: قلة الطعام، وقلة الكلام، وقلة المنام، وإعتزال الأنام.)

وقالوا: (جعل الخير كله في بيت ومفتاحه الجوع، وجعل الشر كله في بيت ومفتاحه الشبع.)

وقال يحيى بن معاذ: (لو كان الجوع يباع في السوق لما كان لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره)! وقال سهل – وهو أحد أصنامهم: – ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال: إخماص البطون والسهر والصمت والإعتزال!

وكلامهم في الجوع وفي فلسفته كثير جداً. وقد دأب جماعات لا تحصى منهم على رياضة الجوع والسهر والعذاب الجثماني، محاولين بذلك أن يبلغوا درجات العارفين الواصلين الذين يلقون العلم بلا تعلم ولا أداة، والذين ترفع عن أبصارهم وبصائرهم الحجب فيشاهدون الحقيقة عارية مجردة من كل حجاب ومن كل لبس وإلتباس! فصارت النتيجة أن أصيبوا بالتخليط وبالفساد العقلي، وبالخيالات والأوهام التي تعلق بمن ضعفت قواهم العقلية والعصبية، نتيجة الإجهاد والإرهاق، أو نتيجة أشياء أخرى معروفة... ومن المصائب أنهم كانوا إذا وصلوا إلى هذا الفساد التصوري وتراءت لهم أشباح الأوهام والخيالات حسبوها حقائق وكشوفاً ومعارف عليا، وحسبها لهم الآخرون كذلك، فراحوا – رغبة في المزيد – يزيدون قواهم البدنية جلداً وإنهاكاً وسهراً وتعباً وجوعاً، فيزدادون بذلك تخيلاً وتوهماً، أي مرضاً وضعفاً، ويتتابع الوحي الذي ينزل عليهم! ثم لا يقفون عند هذه النهاية من الإضرار بأنفسهم وبمن حولهم وبالأمة التي آمنت بإمامتهم أو التي ستؤمن، بل يذهبون يكتبون هذه الخيالات والأوهام في كتب ورسائل لنقرأها نحن، ويقرأها من قبلنا ومن بعدنا! وليس من شك في أن كثيراً من هذه الأفكار والفلسفات التي نواجهها في كتابنا هذا هي إحدى ثمرات هذه الرياضات والفلسفات. فإن هؤلاء القوم ألحوا على أبدانهم بالعذاب الملوز من الجوع والسهر والأعمال الشاقة العنيفة، ومنعوها حاجاتها وشهواتها الضرورية الطبيعية، فأصيبت أعصابهم بالإرهاق والإجهاد ثم بالمرض والانحراف فراحوا يتحيلون ويخالون حتى ظن كثيرون منهم أنهم صارو يوحى إليهم، وأنهم يرون الملائكة عياناً ويسمعون الوحي جهاراً، وأنهم يشاهدون اللوح المحفوظ ويأخذون منه بلا وسيط! بل وأنهم يرون الا ويخاطبونه ويناجونه، وأن نواميس المادة وقوى الطبيعة قد تعطلت أمامهم وأما كشوفهم ومعارفهم اللدنية!

وقد وقع في هذا كثيرون جداً من هؤلاء البائسين الهائمين، وعلى رأسهم ا

http://www.ithar.com

عربي الطائي وأبو حامد الغزالي والشعراني وغيرهم. ولهذا فإن القارىء لكتبهم يجد فيها من الدعاوي المفزعة الباطلة ما يقف إزاءه حائراً، كدعاواهم أنهم اتصلوا بالملائكة والجان والأنبياء والخضر وإلياس والمعروفين عندهم برجال الغيب، وأنهم جالسوهم وصاحبوهم وصادقوهم وتلقوا عنهم العرفان، وأنهم رأوا اللوح والقلم جهرة!

وقد يسرع القارىء إلى رميهم بتعمد الكذب. ولكن هذا ليس بلازم. نعم هو ممكن. ولكن الأقرب منه أن يقال: إنهم قوم مرضى، وإن هذه خيالات تطل عليهم من النوافذ التي فتحوها في عقولهم، فيحسبونها أشياء حقيقية، فيأخذون يتحدثون عنها ويكتبونها ويعتمدون عليها! وأظهر الأسباب في مرض هؤلاء الشيوخ هو الشقاء المادي الطويل الذي تحدوا به أجسادهم وساسوها به شر سياسة. حاسبين أنهم بذلك يخدمون الروح ويتسامون بها عن أحكام المادة ودركاتها إلى عوالم الأرواح ومنازل الملائكة! ونحن إذا عرفنا هذه الحقيقة – أعني حقيقة مرض القوم وسبب مرضهم – هان علينا أن نفهم كيف كتبوا ما كتبوا، وكيف ادعوا ما ادعوا! أمن الممكن أن يكتب عاقل مهما كان جاهلاً أو ضالاً أمثال ما كتبه الشعراني في كتابه (الطبقات الكبرى) وغيره من كتبه، وأمثال ما كتبه آلاف من الشيوخ في ما تركوه لنا وراءهم من المؤلفات؟ ليس من الممكن أن يكونوا مؤمنين بما كتبوه إن كانوا عاقلين، وليس من الممكن أيضاً أن يكونوا إنما كتبوه مخادعين ومضللين، فإن من كان يحمل معه عقلاً سليماً لا يمكن أن يحاول التضليل والإغواء بأمثال هذه الأساليب الصريحة في الجنون والخبل! فلا بد إذن أن نذهب في تعليل هذا إلى أن القوم كانوا مرضى، ولا بد أن ننظر إليهم بالعين التي ننظر بها إلى محموم يهذي، وأن نسمع كلامهم وما فيه من الإدعاء والشطح ونقرأه كما نسمع من نزلاء المصحات العقلية والعصبية، لا أن نجعلهم أئمتنا المختارين، ننزلهم منزلة الملهمين المعصومين... وبهذا نرحمهم لأننا نراهم على حقيقتهم، ونرحم أنفسنا وأمتنا لأننا ننجو بها من الإنحدار في هذه الدركات.

* * *

وجه الخطأ في هذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان

مستقلان متعاديان، وأن كلاً منهما حرب للآخر، وأن كلاً منهما أيضاً إنما ينمو ويزكو على حساب الآخر: فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع وقام بوظيفته خير قيام، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر العكس... وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق. فإن الروح – مهما اختلف في حقيقتها وفي تفسيرها – تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوي واستراح، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أو تعب أو عجز... وهذه حقيقة هي اليوم فوق مذاهب الشك. وفي إستطاعة الرجل العادي أن يعلم صدق هذا بالملاحظة والإستقراء، فإنه يرى أن الجسم إذا ما أنهك وأنصب بعمل شاق أو بسهر أو مرض أو بجوع أو بشيء آخر، مما يضرب الجسم بالإعياء، كانت الروح أو ما يسمى بالروح أو مصدر الفهم في الإنسان، وصار صاحب ذلك الجسم عاجزاً عن الفهم أو كالاً فيه أو ناقصاً. فإذا ما راجعت ذلك الجسم راحته وزايله تعبه ثاب إليه فهمه أو حدة فهمه، ورجع قادراً على تناول الأمور وعلى فهمها تناولاً وفهماً صحيحين... ويرى أيضاً أن الإنسان إذا ما كبر وتقدمت به السنون ووهنت قواه المادية ضعفت روحه، أو ما يسمى بالروح وانطفأ ذكاؤه وخبا ذهنه، وقد يصبح في النهاية خرفاً لا يعي شيئاً كما قال القرآن: "لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً." وهذا في الشيخ الهرم... وكذلك هو في حالة الطفولة قبل تمام الجسم لا تكون روحه – أو مكان الإدراك فيه – كاملة ولا تامة ولا صحيحة... ثم يرى أيضاً أن الروح أو ما يدعى بالروح يتبع البدن في كل شيء ويتأثر بما يتأثر به: فإذا نام البدن أو خدر أو أغمي عليه أو سكر أو إنتابه مرض فتاك وصل به إلى حد الهذيان، أصيبت الروح بما أصاب الجسم بالنوم وبالخدر وبالإغماء وبالسكر وبالهذيان وبكل ما عرا البدن... وبهذه الملاحظة الأولية البسيطة يستطيع أن يعلم أن الروح تابعة للجسم في مرضه وصحته وفي قوته وضعفه وفي إفاقته وسكره وفي نومه ويقظته وفي كل حالاته. بل وفي الجنون أيضاً، فإن الجنون خلل مادي يصيب منطقة التفكير وهو المخ فيصير المرء مجنوناً. أما الروح فإنها عندهم لا تجن. ومع هذا فإن كل شيء الإنسان يكون مجنوناً إذا تلف مركز الفهم فيه.

* * *

لما حاقت بفرنسا الهزيمة في هذه الحرب وسلمت للفاتحين الألمان، وفرد

http://www.ittiar.com

عليها نظام البطاقات، وكانت الأغذية التي تقدم للشعب الفرنسي بمقتضى هذه البطاقات دون ما يلزم ودون ما يكفي حاجة البدن، قام رجال الصحة ينادون ويقولون: إن الآثار التي سيخلفها ويوجدها نقص التغذية في قوى الشعب وفي مقدرة الأجيال المقبلة على مجابهة الحياة والنهوض بأعبائها، ستفوق كل آثار الهزائم العسكرية التي أصابت فرنسا، والتي قد تصيبها... وقد قيل مثل هذا القول في سائر أنحاء أوروبا لما ضرب عليها الجوع والحرمان والشقاء المادي طوال سني الحرب الست. وقيل إن الأجيال القادمة ستكون عاجزة ضعيفة واهنة لحرمانها من الغذاء الكافي. وقيل إن هذا العجز والضعف والوهن سيتناسل وسينتقل لأجيال أخرى قادمة، لأن الجيل الضعيف يخلف أيضاً جيلاً ضعيفاً مثله.

ذلك أن من المعلوم أن كل عمل، حتى أقل حركة، إنما يصدر عن القوة، والقوة إنما تولدها الطاقة، والطاقة إنما هي إحدى خصائص المادة. فكل عمل يصدر منا أو مما حولنا لا يصدر عن غير المادة. فالمادة إذن هي الأعمال، وهي القوى، وهي الشعوب والأمم. وكل شعب يفوق الشعوب الأخرى إنما يفوقها بما عنده من المادة وبما أحسن وانتفع من إستخدامها، لا شيء غير ذلك، حتى النبوغ والذكاء والعلوم والأخلاق والآداب، ليست سوى مظاهر للمادة المنظمة المرتبة التي سيطر عليها الإنسجام والإعتدال وجمال الوضع؛ ما هي الكهرباء، وما هو النور، وما المغناطيسية والجاذبية، وما هذه الألوان الزاهية التي تجلل الأزهار وغيرها والتي تروع منظراً، وما هي الأصوات ذات الأنغام، بل ما هو الجمال الإنساني الذي عجز كل ما عند الناس من ألفاظ وعبارات عن نعت ما فيه من قوة وتأثير وسحر؟ ما هذا كله؟ أليس هو المادة المنسقة المحكمة وأوصافها ومعانيها وقواها؟ وما هو النبوغ والعبقرية اللذان يوجدان الشعوب ويصنعان الحضارات؟ هل هما غير ذلك الرأس الممتاز المستدير على تلك المادة النفيسة؟ إن أجمل شيء من هذه الحياة وأروعه ليفقد جماله وروعته وسحره وقوته إذا غير وضعه المادي بلون من ألوان التغيير، بالزيادة أو النقصان، بالكيف أو بالهيئة... وإن أفراد هذا الوجود – سواء في ذلك الحيوان والنبات والجماد الأصم – لكل واحد منها حد مادي معين ومقدار معلوم إذ بلغه جاء سليم التكوين، تام التركيب، صالحاً لبلوغ غايته وللقيام بوظيفته، وإذا لم يبلغه جاء

فاسداً وعقيماً وغير صالح لشيء كما يجب... فالحيوان والنبات – بل والصناعات الصماء الجامدة – إن لم تأخذ وحدها الأعلى المناسب المقدور لها كانت غير تامة، وغير مستطيعة أن تعطي ثمرتها. والإنسان إن لم يبن جسمه بناء سوياً قوياً – ولا سيما في أعوام تكوّنه، منذ الولادة إلى أن يتم بناؤه العام – فأنه يجيء خلقاً ضعيفاً عاجزاً عن كسب معركة الوجود، هجوماً ودفاعاً، عاجزاً عن أن يبلغ ما يبلغه الإنسان القوي السوي، لا مقلداً ولا مبتكراً، محكوماً عليه بسنة الحياة العادلة بأن يظل تحت سلطان من هو أقوى منه وأسلم تكويناً، وأن يتمزق إن حاول أن يصطدم به، كما هو الشأن في كل قوي وضعيف يتصادمان.

ثم إن الإنسان أيضاً عامل متحرك حي، والعمل والحركة يحدثان إحتراقاً في المتحرك العامل ويأخذان من قواه، فلا بد من التعويض وإلا هلك وبطلت حركاته وأعماله. وما من شيء يأتي بأبسط حركة وأضعف عمل إلا ولا بد له من الوقود، فإن الشيء لا يوجد من لا شيء، والموجود لا يولده المعدوم. ولن تدور أو تسير أو تتحرك آلة من الآلات وصناعة من الصناعات بدون الوقود، وهي محتاجة إليه ما ظلت دائرة سائرة متحركة. فإذا نفد وقودها بطل عملها وحركتها... وكذلك الإنسان محتاج إلى الوقود اللازم الكافي ما ظل حياً عاملاً متحركاً، ولا يستغني عنه إلا إذا مات وأصبح غير صالح لأن يأتي بشيء. والوقود الذي يقدم إليه – وهو الغذاء – إن كان غير جيد أو غير طيب فإن عمله وحركته تجيء كذلك، وقد يصاب بالعطب كالآلة تماماً إذا نقص وقودها أو كان غير جيد... وليعلم أن التفكير حركة وعمل أيضاً، ولكنه حركة وعمل جباران مرهقان. فلن يستطيع التفكير الجبار القوي المبتكر المبدع المنتج من لم تكمل آلته، ومن لم يتحصل على ما يكفيه ويلزم له من الغذاء. فالشعب لا يمكن أن يكون له قيمة في هذه الحياة، ولا شأن مذكور مرهوب، ولا قوة عملية أو ذهنية عقلية إلا إذا كان تكوينه الجسماني تاماً سليماً، وكان غذاؤه متوفراً. فمثل هذا الشعب هو الذي قد يصلح للحياة وقد تصلح له.

أما الشعب المريض الهزيل الجائع فإنه لن يكون شيئاً كبيراً ولن يصنع شيئاً كبيراً. وقد ثبت ثبوتاً قاطعاً أن الشعوب القوية الأبدان، التي نجت من الجوع والشقاء والحرمان أقرب إلى الكمال الإنساني من الشعوب المحرومة الضعيفة الشقية: فهي أشجع وأصبر وأصدق وأعظم مروءة ونخوة وحمية وإباء

http://www.ithar.com

وتواضعاً، وأذكى وأفهم للحقائق وللحياة، وأبعد عن الخرافات والسخافات وعن الإضطرابات العصبية والعقلية وعن العادات السقيمة المخزية... وأنها على وجه العموم أسلم تفكيراً ونظراً، وأصدق عملاً، وأضخم إنتاجاً. ولهذا كان الرياضيون أقوى الناس أخلاقاً وأفضلهم شمائل.

نعم، الروح حق وهي من أمر الله، ولكن الفلسفة التي إنتحلها هؤلاء في صلتها بالبدن ومقامها منه فلسفة ليست لها قيمة برهانية، بل البراهين متظاهرة على بطلانها. وذلك أن إتصالها بالجسد إن كان إتصال الصفة بالموصوف فليس هناك ريب في أن الصفة تعظم بعظمة صاحبها وتخس وتضؤل بخسته وضآلته، بل ليس هنالك قيام للصفة ولا وجود إلا بموصوفها وبوجوده. فالصفات إنما تستمد وجودها وقيامها وحياتها وقوتها من موصوفاتها. فكيف يصح الزعم بأن هنالك عداء بين الصفة والموصوف، وأنه كلما نقص الموصوف وضعف وأشقى وحرم – والموصوف هنا الجسد كما هو المفروض – عظمت الصفة وعظم فعلها وعملها – والصفة هنا هي الروح على ما هو الفرض.

وأما إن كان إتصالهما من إتصال الحال بالمحل والنزيل بالمنزل، فلا شك أيضاً في أن النازل الحال يكرم ويشرف بكرم محله وبشرفه، ويستفيد من جماله وحسنه وسعته وقوته وسمو قيمته. ولا يمكن أن يدعي أن رداءة المنزل وصغره وضآلته وتهدمه وسوء تركيبه وإهماله وضعف بنائه مما يشرف صاحبه ويرفع من قدره ومما يهبه القدرة والكمال.

وأما إن زعم أن هذا الإتصال بينهما هو كإتصال اللابس بالملبوس، فالقول فيه كالقول أيضاً في صلة الحال بالمحل والنازل بالمنزل... وعلى الإحتمالات الثلاثة ليس مما يقرب من الصواب ولا مما يحتمله الإدعاء أن بين الروح والجسد عداوة وتنافراً بالشكل الذي ذكروا.

ولا يدري ما هي نقطة الإرتكاز لهذه الأوهام التي استطاعت الإستقرار في الأذهان كل هذه العصور والأجيال.

وقد وضع ابن سينا قصيدة شهيرة، عرفت بالعينية، أودعها آراء غريبة في إجتماع الروح بالجسد وهبوطها من المحل الأرفع عليه. جاء في مطلعها:

هبطت عليك من المحل الأرفع
ورقاء ذات تحجب وتمنع

محجوبة عن كل مقلة ناظر
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
هبطت على كره إليك وربما
قبلت فراقك وهي ذات توجع
أنفت وما ألفت فلما جاورت
ألفت مجاورة الخراب البلقع

يريد بهذا أن الروح لم تقبل الحلول في البدن ولا الهبوط عليه من سمائها إلا مكرهة، لأنها هي سماوية وهو أرضي ترابي، وأليم وجيع بسكان السماء أن يقبلوا النزول في الأرض وسكناها. ولكنها بنزولها إلى الأرض ومجاورتها لها ولأهلها، وبحلولها ببدنها المدد الطويلة تكيفت بالمادة وبالتراب والحضيض، فألفت ذلك بعد أن أنفت منه، فصارت به آنسة وإليه مستريحة وبه قريرة، فأضحت كارهة لفراقه بعد أن كانت كارهة للإجتماع به والنزول إليه... وهذا هو سر ألم الموت وشدة خروج الروح من الجسد حين الوفاة.

وسواء أصح هذا الذي ذكره ابن سينا أم لم يصح، فإن الشيء الذي لا ريب في صحته هو أن الجسد المادي هو الوسيلة التي لا وسيلة سواها للقيام بالأعمال وبوظائف الحياة وبالخير والشر، وللإستمتاع بالسعادة أو بالشقاء، بالنعيم أو بالجحيم. ولهذا فإن الأرواح لم توجد في الدنيا مجردة من المادة ومن أبدانها، ولم تحضر في الآخرة للقاء الجزاء مجردة كذلك، بل أحضرت بالأجسام الجميلة الكاملة... والذين يدعون الآن أنهم يحضرون الأرواح وأنهم يستخدمونها في بعض الأغراض والأعمال يدعون أن ذلك غير ممكن إلا بواسطة المادة وبواسطة الوسطاء.

أفليس معنى هذا كله أنه سبيل إلى عمل شيء ما ولا إلى الإستمتاع بشيء ما إلا بواسطة الماديات، فالذين يدعون أنه تجب محاربة المادة ومحاربة الأبدان وتعذيبها وإهمالها من أجل الوصول إلى الكمال وإلى الخير المطلق ومن أجل الظفر بالقوى الروحية كاملة مجتمعة، قوم لم يوفقوا فيما قالوا وفيما ادعوا.

وإذا كان واجباً علينا أن نعنى بخدمة أرضنا ومزروعاتنا – لأننا نرغب في ثمر طيب وخيرات كثيرة – فإنه كذلك واجب علينا أن نعنى بخدمة أجسامنا وبتكوينها وبنائها، إذا كنا راغبين حقاً في الحصول على عقول ممتازة وعلى

http://www.ithar.com

أعمال جبارة كبيرة، وعلى شعب يسود ولا يساد، وعلى رجال يسابقون الإنسانية أو يسيرون مع طليعتها في الإختراعات وإيجاد الحضارات... ولننبذ من اليوم بلا تردد هذه الأفكار العقيمة والآراء الميتة، ولنرفعها من قواميسنا ولغاتنا ثم لا نرجعها مرة أخرى، ولنزهد في الزهد إن كان لا بد من الزهد. ويجب أن يعلم أن كلمة الزهد لم ترد في القرآن إلا في موضع واحد وهو قوله في قصة يوسف: "وكانوا فيه من الزاهدين" ولا شك أن المقام هنا مقام ذم. وكذلك لم ترد في الأحاديث الصحيحة هذه اللفظة.

* * *

ولنورد في آخر هذا البحث ما يعد مقارنة صغيرة يسيرة بين هذه الأقاويل التي زعمت لباب الإسلام، وبين عبارات جاءت في التوراة حاثة على العمل من أجل الحياة وعلى الترغيب في الغنى وفي ذم الفقر والفقراء.

فجاء في سفر الأمثال: العامل بيد رخوة يفتقر. أما يد المجتهد فتغني. من يجمع في الصيف فهو ابن عاقل، ومن ينام في الحصاد فهو ابن مخز... ثروة الغني مدينته الحصينة. هلاك المساكين فقرهم. عمل الصديقين للحياة. ربح الشرير للخطيئة... الأشداء يحصلون غنى... من يشتغل بحقله يشبع خبزاً. أما تابع البطالين فهو عديم الفهم. يد المجتهدين تسود. أما الرخوة فإنها تكون تحت الجزية. الرخاوة لا تمسك صيداً. أما ثروة الإنسان الكريمة فهي الإجتهاد... نفس الكسلان تشتهي ولا شيء لها، ونفس المجتهدين تسمن. فدية نفس رجل غناه. حيث لا بقر فالمعلف فارغ، وكثرة الغلة بقوة الثور. في كل تعب منفعة. وكلام الشفتين إنما هو إلى الفقر. تاج الحكماء غناهم. لا تحب النوم لئلا تفتقر. افتح عينيك تشبع خبزاً... نوم قليل، نعاس قليل، وطي اليدين قليلاً للرقاد يأتيك بفقرك عداء وبعوزك غارياً.

هذه نقول قليلة من عبارات كثيرة جداً تفيض بها صفحات التوراة... ويلاحظ في هذه الكلمات التي نقلناها أنها تعلق الثراء والفوز بطيبات الحياة بأسبابها الصحيحة، كما تعلق الفقر والإفلاس والشقاء بأسبابها الصحيحة أيضاً: فالمجتهد العامل القوي الجاد المكافح ينال الثراء والمجد ويدرك أغراضه كاملة، والكسلان الضعيف القاعد ليس له سوى الفقر والجوع والهوان الإجتماعي، وهذا جزاء حقيقي عادل وهذا خلاف ما عهد وعرف في الكتب

الدينية، فإنها تعلق كل فلاح – حتى الفوز بالدنيا وبالخيرات المادية – على الصلاح والعبادة والتقوى، وتعلق كل شر وخيبة في الدنيا وفي الآخرة على الفسوق والعصيان – أي إنها تعلل كل شيء تعليلاً دينياً لا تعليلاً طبيعياً، بل إنها تنكر هذا التعليل وتراه زيغاً ومروقاً. أما هذه الأقاويل التي جاءت في التوراة فهي – كما رأى القارىء – تعلل كل شيء بسببه الصحيح الطبيعي: فلا تقول: إن الصلاة والذكر وخوف الله تجيء بالمال، ولا إنها تزيد في إنبات الأرض وإخصاب الزرع، ولا إن ترك الصلاة والعبادة يمنع مجيء المال ويمنع نبات الأرض وإخصابها إذا ما جمعت أسباب ذلك، بل كل شيء وسببه! وهذا لون غريب وتعليل عجيب في كتب الدين.

أما مدح الثراء والدنيا، ومدح العمل لها وذم التهاون فواضح جداً مما نقلنا وذكرنا... وقد بالغت كثيراً هذه الآيات – إن كانت آيات – في تحجيب المال إلى النفوس وفي الرفع من قيمته، وفي تبغيض العوز إلى البشر، متحدثة بالويل والثبور والهلاك لكل من لا يكون غنياً، وبالسعادة والهناءة لكل من كان غنياً... ولا يوجد أشد مبالغة في الحض على حب الحياة من قوله (عمل الصديقين للحياة) ومن قوله (من يجمع في الصيف فهو ابن عاقل.) وهذا الضرب من التعليم غريب أيضاً في الكتب الدينية. فالغرابة في هذه الأقوال من ناحيتين: الأولى: تعليل النجاح في الدنيا بالعمل لها لا بالتقوى كما يقول رجال الدين، وتعليل السقوط بترك العمل. والثانية: المبالغة في تزيين الحياة الدنيا وتزيين العمل لها والحكم بأن من يفعل ذلك فهو العاقل الراشد المرضي عنه، ومن لا يفعله فهو الأحمق الجاهل المغضوب عليه.

ولسنا نستطيع أن نشك في أن هذه التعاليم قد كان لها تأثير حافز للطوائف اليهودية البارعة والمشهود لها لدى الجميع بالبراعة في كسب المال وفي السيطرة على الموارد الإقتصادية أين وجدوا وكيف وجدوا، حتى صار معلوماً في كل زمان ومكان بأن من يحاول منافستهم ومقاواتهم محكوم عليه بالهزيمة – كما أن تلك التعاليم التي نقلناها عن أولئك المشايخ الهدامين قد كان لها التأثير الحاسم في قتل همم من ابتلوا بقراءتها من المسلمين حتى أضحوا مضرب الأمثال في العجز الإقتصادي وفي غيره من ميادين الحياة... فاليهود ما زالوا يقرأون هذه العبارات والترغيبات في التوراة على أنها وحي نزل إليهم من الله على أنبيائهم،

http://www.ithar.com

فتحدث في نفوسهم وطباعهم حب المال وحب العمل وحب الحياة على مر القرون إلى أن صاروا بهذه المكانة المالية المرموقة، وإلى أن سلمت لهم الإمامة والتبريز في هذا الشأن.

ثم هذه الأقاويل إن كانت من الوحي النازل على الأنبياء فهي حجة دينية على فضل العمل من أجل الدنيا وفضل حب المال، وإن كانت مما وضعوه وزادوه فهي برهان على تمكن النزعة الإقتصادية من نفوسهم وطباعهم بحيث حملتهم هذه النزعة الغالبة على أن يضعوا أقوالاً وآيات في تفضيل ما يحبون ويشتهون ليدسوها في كتبهم المقدسة، ولينحلوها الله وأنبياءه، وليتعبدوا بها وبتلاوتها! وسواء أصح هذا أم ذاك فالذي لا ريب فيه أن لهذه الآيات فضلاً عظيماً كبيراً في تاريخهم المالي الطويل القوي.

* * *

إن ذكرى تفيض بالمرارة والحسرة تعاودني كلما مر بخاطري عصر مشؤوم قضيته مسحوراً بهذه الآراء: كنت أفر من الحياة ومما يعلي من قيمة الحياة: لقد كنت لا أجد ما يحملني على أن أرفع قدمي لو علمت أني إذا رفعتهما تكشف ما تحتهما عن أعز ما عليه يتقاتل الأحياء! وقد ضاعت عليّ من أجل ذلك فرص، كان يمكن الإفادة منها، لا يمكن إسترجاعها! كان الغرور الديني قد أفسد على كل شعور بالوجود وبجماله. وكنت مؤمناً بأن من في المجتمع لو كانوا يرون رأيي ويزهدون زهدي لوقفت الأعمال كلها، ولما وجد العالم بداً من أن يخرب! كنت أنظر إلى من يهتمون بالحياة وبمن فيها ومن يعملون لها ويجاملون ويخالقون من أجلها بعين أقل ما فيها الإحتقار والإستصغار! وكنت لا أبالي بأحد مهما كان عظيماً ومهما كان قادراً على النفع والضر. وما كنت أفكر في أن أجد فرصة للقائه أو للقرب منه أو للإتصال به! وكنت لا أخالق إنساناً رغبة فيما يتخالق الآخرون من أجله. وكان شعاري في تلك الفترة قول ذلك المغرور والمخدوع مثلي:

إذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذي فوق التراب تراب
فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب

نعم كنت أعتقد أن الكل هين، وأن جميع ما فوق التراب وما في العالم من جمال وطيبات وحاجات، ومن أقوام وأمم وشعوب، تراب! وكنت لا أبالي أن يحلو لي شيء من ذلك أو يمر، ولا أن يرضى أو يغضب، ولا أن يعمر أو يخرب، كما يقول هذا الشاعر المسكين! وكنت أرى أني بذلك أرضي الله، وأني إذا أرضيته فلن يضيرني شيء[1] وكانت الدنيا كلها تدور من حولي من غير أن أدور معها أو أحس دورانها! وكان يخيل إليّ وإلى غروري الديني الأعمى أنه لا قوة كقوتي، لأن الله معي – واهب القوى! فليقو العالم كما يشاء، وليجمع من الأسباب ما طاب له، وليحاول من أجل نفسه ما يحاول، فإن ذلك كله لا قيمة له ولا خطر بالنسبة إلى قوة من استقوى بطاعة الله ومن ترك الأسباب جملة مستمسكاً بأسباب الله وحدها، وكان يبدو لي أنه بقدر إيمان الإنسان بذلك، وبقدر كراهته العالم والوجود والدنيا والإنسانية كلها، وبقدر إستصغاره لها وإحتقاره إياها وكفره بها ومغاضبتها ومجانبتها – بل سبها ولعنها – يكون قربه من الله ورضاه عنه ودلاله عليه... وكانت هذه الإعتقادات أو الخيالات تهبط بي وتعلو، وتجعل لي وجوداً خاصاً وعالماً خاصاً ودنيا خاصة، تدور من أجل واحد وتوجد لأجل واحد أيضاً – واحد أرضى الله ووهب له كل معانيه فوهب الله له على حسب ما يظن كل ما يريد ولو كان في جملة ما يريد إعزاز الأمم وإذلالها.

وكانت الخطب الأسبوعية التي أسمعها، والعظات الأخرى المتجددة المتكررة المستمرة، والكتب التي أقرأها، لا تدع فرصة لي لتنبعث غريزة أو تنطلق طبيعة من الغرائز والطبائع الكامنة في أعماق النفس الإنسانية وفي ثنايا الوجود الإنساني التي تدفع إلى العمل وإلى حب الحياة! وكانت كل تلك الغرائز والطبائع والمعاني الإنسانية عندي معلّقة، لا تستطيع الإنبعاث ولا الإنطلاق ولا العمل... كانت الخطب أيام الجمعات إحدى النكبات. وذلك أنها لتكررها كل أسبوع

(١) يبدو على كثير من المتمدنين قسوة وخشونة في معاملة الناس ومخاطبتهم! والسر النفسي في هذا أنهم يعتقدون أن الإتصال بالله وبالإيمان بعظمته وكامل قوته يستلزم الإستهانة بخلقه الضعفاء فليشتموا وليهانوا إذن فإن ذلك لن يضر شيئاً، بل إنه ينفع، لأنه كالبرهنة على الثقة بالله وعلى أن الضر والنفع منه وحده.

http://www.ithar.com

استطاعت أن تجعل تخديرها مستمراً مضموناً متجدداً... فالطبيعة الإنسانية تأبى الإستمرار في الشقاء والبؤس، وتأبى أن تبقى مستذلة راضية مستسلمة لذلك إلا إذا أمكن أن تقعد وأن تمنع القيام بوظيفتها بأن تعمل لها عملية تخدير أو تنويم صناعي أو شيء آخر من تلك العمليات المبيدة. وكانت خطبة يوم الجمعة من أعظم وأقوى ما يقوم بهذه العملية، لأنها لتكررها لا تترك فرصة لإنطلاق معنى طيب من معاني الإنسان.

ومن العجيب – بل من غير العجيب – أن البائسين الذين يخدرون بهذه الخطب كل أسبوع وتقيد بها غرائزهم وطباعهم وتمنع العمل والإحساس بالحياة يجدون لذة مسكرة في سماع هذه الخطب وترديدها! وليس هناك شك في أن شعورهم بهذه اللذة يشبه شعور مدمن المخدرات عندما يتناول منها شيئاً بعد حرمان طال أو قصر! وذلك أن هذا التناول للمخدر، وهذا السماع للخطبة المخدرة يؤديان عملية التسكين في الحالتين فحرمان الإنسان من الحياة الصحيحة الجميلة يؤلمه ويؤذيه لو ترك سليماً معافى، ولن يستطيب ذلك إلا إذا خدر، فالخطب تقوم بهذا التخدير، فيجد البائس المسكين فيها تسكيناً لآلامه، ويجد فيها عزاءه، ويجد فيها آماله الضائعة المشتتة المحرومة! فيظل مستكيناً راضياً، وينعم عيناً بكل ألوان الشقاء، ويظل يتدلى ويهوى في دركاته حتى يصل إلى حالة يتعجب السليم المعافى من رضاه بها وسكوته عليها وحياته معها! وكما أن مدمني المخدرات يبلغون حالة من الإنهيار المادي والمعنوي لا يتصورها العقل – مع رضاهم بها – فكذلك الذين يخدرون بهذه المواعظ المتكررة يبلغون هذه الحالة من الإنهيار مع رضاهم بها ولذتهم بإعطائهم هذه النوبة الأسبوعية المخدرة.

إن القوانين تعاقب من تناول المخدرات مرة في خفية وعلى حذر، ولكنها تبيح تخدير الآلاف! بل مئات الآلاف، بل مئات الملايين في المساجد والجمعيات كل أسبوع بل كل يوم أحياناً، ثم تحث هؤلاء المخدرين على أن يخدروا، بل وتجازيهم وتوظفهم وتقتطع لهم من أموال الدولة المكافآت الشهرية! وهذا بلا ريب من أعجب مناقضات القوانين وغرائبها.

لقد أريد أن تؤدي المنابر والمساجد أعظم المنافع للإنسانية فأدت شر ما يؤدي: أريد منها أن تحيي فأماتت، وأن تعز فأذلت، وأن تهدي فأضلت، وأن

تبعث على العمل فبعثت على الكسل، وأن تمتدح الحياة فامتدحت الموت، وأن ترفع من شأن الجمال وتحببه إلى النفوس فرفعت من شأن الدمامة وحببها إليها، وأم تملأ الرؤوس بالحقائق فملأتها بالأوهام، وأن تخلق شعوباً متوثبة فخلقت شعوباً خاملة عاجزة – تنتظر وجودها وحياتها وحاجاتها من خارجها لا من أنفسها، معلقة أبصاؤها دائماً بالسماء، منتظرة أن تمطر عليها الذهب والفضة والسيادة والوجود والعز وكل ما يؤمل، ولا تنظر إلى نفسها وطبيعتها... فأقبح بها من منابر أشاعت الموت والدمار والظلام والجهل!!

كم أرثى لهؤلاء البائسين المساكين الجائعين العارين حينما أراهم يوم الجمعة، وآذانهم مرهفة، وأعينهم مشدودة بذلك الخطيب الذي عبث بجسده الناحل المشوه الجهل والشقاء وكل ضروب الحرمان، ينتظرون منه أن يطعمهم وأن يكسوهم وأن يهبهم الصحة والعافية، وأن يبني لهم المنازل الجميلة، وأن يقضي لهم كل حاجة ورغبة، وأن يقدم إليهم الإستقلال والسيادة كهدية خالصة رخيصة، وأن يدخلهم أخيراً الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء في صنوف الأبرار المقربين... والثمن لذلك كله لا يعدو كليمات خفيفات مهمات مجهولات يتمتمون بها، وبعض حركات يمثلونها، أو تمثل بهم كما هو الصحيح، بدون أن يفقهوا لها معنى أو يدروا لها غرضاً وغاية.

وكم أرثى لهم – بل وأبكي – وهم يتمايلون تحت ذلك الخطيب، ويهزون رؤوسهم الفارغة، ويترنحون بأعطافهم المحطمة تحت تلك الأسمال البالية الممزقة، كلما سمعوا وعداً أو وعيداً، وكلما سمعوا الآمال الضخمة الرخيصة تزجى إليهم، والأهوال الراعبة المذهلة تصب عليهم، وكلما سمعوا أن إنساناً ارتفع من حضيض الفاقة والذل إلى أوج الثراء والعز – وأن آخر توقفت أمام إراداته قوانين الطبيعة ونواميس الوجود أو بطلت – وأن آخر أهبطت له الملائكة المقربون من سماواتها لتكون في خدمته وتحت مشيئته – وأن آخر زف إلى الجنة زفاً وبين يديه الملائكة والنبيون يحملون المشاعل والبخور ويفتحون له الطريق – بل وأن أمة استولت على الأمم وأملت على الزمان والمكان – لا لشيء سوى أنهم أرادوا ذلك وطلبوه، وأنهم تحركوا حركات، سموها عبادات: نعم كم أرثي وأبكي لهؤلاء البائسين وهم يهتزون تحت هذه الوعود والبشارات ويتلمظون شوقاً ورغبة، ثم يخرجون وهم يندبون أنفسهم، ثم يقضون أيامهم ويودون بآمالهم إلى

http://www.ithar.com

نهاية الأجل القريب، مخمورين بهذه الخمرة التي لا يفيق شاربها.

لقد كان من الممكن أن تنطلق شرارة، أو تنبعث عاصفة من الطاقة الإنسانية الأبدية الكامنة في أعماقهم، فتضيء لهم الطريق أو ترتفع بهم عن هذه الوهدة وتنقلهم عن هذا المكان الذليل، لو تيسر أن ينقذوا من براثن هؤلاء المخدرين. ولكن هذا الإجتماع الأسبوعي مفروض فرضاً، وهذه الخطب مفروضة على هذا الإجتماع فرضاً أيضاً، فأين النجاة وكيف الفرار!

قد يجوز أن يختلف المصلحون في كثير من طرق إصلاحهم، ولكن ليس مما يجوز الإختلاف فيه أن الواجب الديني والوطني والإنساني يلزم إما بإصلاح هؤلاء الخطباء وهذه الخطب، وإما بالحيلولة بينهم وبين ضحاياهم وضحاياها. وإما بشيء آخر...

وقد أراد جماعات من المتأخرين أن يجددوا في معنى الزهد وأن يجعلوه عصرياً، فقالوا: إن الزهد محله القلب لا اليد – يعنون أن القلب هو الذي يجب أن يزهد في الدنيا وأن يكرهها ويعرض عنها، أما اليد فلا بأس بأن تجمع وأن تعمل. وقد ظنوا أنهم بذلك قد وفقوا بين أقوال هؤلاء الشيوخ وبين ما تتطلبه الحياة من عمل ونشاط... وفات هؤلاء أن هذي الفكرة مستحيلة متناقضة. وذلك أنه من غير الممكن أن يكره المرء الدنيا بقلبه – أو ألا يحبها بقلبه – ثم يعمل لها بإهتمام، صابراً على مشقات الطلب والعمل، لأن الذي يبعث الإنسان على ذلك هو حب النتيجة التي يرجو تحصيلها وإلا لما قام بعمل شاق إلا أن يكره إكراهاً، بل الذي يمكن في هذه المسألة هو العكس – أي إنه من الممكن أن يحب قلبه وتزهد يده. فمن الواقع المشاهد أن تكون محباً للدنيا وللمال جداً بدون أن يمنعك هذا الحب من الإنفاق وصرف ما في اليد رجاء المثوبة أو رجاء أمر آخر أو طاعة لعاطفة نبيلة. وكل الذين يجودون بأموالهم هم من هذا النوع. وقد أشار القرآن إلى هذا في قوله "لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون" وقوله "ولكن البر من آمن بالله – إلى قوله – وآتى المال على حبه ذوي القربى..." وقوله "... ويطعمون الطعام على حبه." وهذه الآيات صريحة في أن المؤمنين الذين يحبهم الله ويشيد بهم وبأوصافهم كتابه هم الذين يحبون المال. أما هؤلاء المحرومون الحارمون فيزعمون أن حب الدنيا والمال رأس كل خطيئة! فالمرء إذن قد يحب المال ثم ينفقه، ولكنه لن يكرهه ثم يعمل له. فهذا الرأي الجديد في الزهد يدل على أن أصحابه لا

يصدرون في ما يقولون عن نظر وتفكير.

* * *

غير أن هذه المسألة قد تدرس على وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجهاً، أو أنه هو الوجه الصحيح. ذلك أن من القضايا المتفق عليها أن الإختلاف بين الناس في وضعهم الإجتماعي وفي تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والعز والذل، وغير هذي الأمور، لا يمكن أن يقضي عليه، بل يوجد إلى جانب الغني الواحد عشرات الفقراء – أو مئاتهم أو آلافهم – ولو فقراً نسبياً – كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين أو مئاتهم، يهتفون بحياته وبإسمه إذا بدا، ويخضعون لأوامره إذا غاب – وهكذا القول في كل ناحية من نواحي هذه الحياة المحكمة التعقيد.

وحينئذ فالمسألة ذات فرضين: أحدهما أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحر المطلق الذي لا حدود له ولا قيود، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومغالبتهم في غرض من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبوناً محروماً، ووجب عليه ألا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يبطل له مسعى حتى يوفي على كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذي ورده الآخرون السابقون... وأسلحته في ذلك إتلاف جسمه وإرهاق نفسه.

وثاني الفرضين أن يرى أن الأمر دون ذلك كله، وأن الدنيا ما هي إلا حاجة قليلة، يكفي منها ما أمسك الحياة، وأن التفاوت في مظهرها هو مثل التفاوت في مظهر الموت: يحمل عليها وليس منها، ويلون بها ولكن لا يكونها، وأن القميص الحريري يلبسه الحي بالنسبة للقميص القطني أو لما دونه، هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه، وأن المرء ليس إلى عقله وفكره وأخلاقه – أي ليس إلا ذاته المعنوية، وليس هو ما يتصل به إتصالاً مما ليس فيه ذاتياً.

أما الفرض الأول فهو ما لا شك في عنفه على البشرية وقسوته عليها. فإن البشر لا يستغنون في حال من الأحوال عن القرار والرضا – كله أو بعضه – بما هم فيه وإلا لهلكوا وعصفت بهم الحسرات... وما الرضا والقرار في هذه الحياة إلا كالظل والماء والخصب بالنسبة للصحراء المجدبة المشبوبة عليها الشمس

http://www.ithar.com

المحرقة. وإن البقاء في هذه الحياة بدون هذين الأمرين - الرضا والقرار - مستحيل إستحالة الحياة في هذي الصحراء بدون الماء والظل والخصب... ولا شك أن هذا الفرض في الحياة ينتزع منها أسبابها، ولن يوجد شيء إذا لم توجد أسبابه.

فإذا ما قامت الفكرة الإنسانية العامة على أن وجودها لا يعدو أن يكون ملحمة مادية قاسية متواصلة، وأن حظ كل فرد منها هو ما يغتصبه تحت غبار هذه الملحمة، وأن سعادته وشقاءه منوطان بها، فلا شك في أنها - الانسانية - ستحرم حينئذ حرماناً باتاً من السعادة ومن الهدوء والإستقرار. فإن كل إنسان - بالغاً ما بلغ - سيجد أمام عينيه من هو فوقه في شيء أو في أشياء كثيرة، وسيجد مجال التطلع والتشوف شاسعاً واسعاً دائماً، وسيشقيه هذا الفرق أو هذه الفروق، وسيمر عليه أحلى ما في حياته من طيبات، وسيبقى من هذه الناحية ولأجل هذا الوجه - وإن نال أقصى ما تتطلع إليه أكثر النفوس - مثل من حرم الحرمان كله، لأن كلاً منهما يرى من هو فوقه ومن ميز عليه في أمر من الأمور، ويبصر ما قعدت به عنه قواه ويداه. وسوف يظل هذا الشعور والإعتبار مبعث آلام لا تنتهي ومصدر إعتداءات لا ضابط لها. فإن أكثر العدوان الذي يقع بين البشر دائماً إنما يقع للإيمان العميق بالمادية. ولا شيء يستطيع القضاء على هذا العدوان المنتشر في كل زمان ومكان ما لم يتغير النظر إلى الحياة وإلى حقيقة الإنسان، وما لم تهذب هذه النظرة المادية الجشعة الطاغية...

وعلى هذا فلا مفر من إقرار مبدأ القناعة والزهد، ولا بد من الإيمان بالإفتراض الثاني، وفيه وحده شفاء الإنسانية المضمون من داء الجشع الذي أشقاها وأشقى معها الوجود كله. ولا ريب أن من أعظم أسباب هذه الحروب الشاملة هو هذا الإيمان بالمادية والإنقياد لنزعاتها ونزواتها وشهواتها. ولو أنها نهنهت من هذا الإيمان وكفكفت من غلوائه لكان في ذلك بعض النجاة أو كلها. ولهذا فقد قامت الأديان والفلسفات القديمة على هذا الإفتراض وأمعنت في تجميله وتحسينه والدعوة الصادقة إليه. وجاء في الحديث النهي عن أن ينظر المرء إلى من فضل عليه في الدنيا، وأمر بأن ينظر إلى من هو دونه لهذا الغرض نفسه. وفي الكتاب "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا."

يصدرون في ما يقولون عن نظر وتفكير.

* * *

غير أن هذه المسألة قد تدرس على وجه آخر فيبدو من دراستها على هذا الوجه أن لما يقوله الزهديون وجهاً، أو أنه هو الوجه الصحيح. ذلك أن من القضايا المتفق عليها أن الإختلاف بين الناس في وضعهم الإجتماعي وفي تفاوت درجاتهم من حيث الغنى والفقر، والصحة والمرض، والقوة والضعف، والعز والذل، وغير هذي الأمور، لا يمكن أن يقضي عليه، بل يوجد إلى جانب الغني الواحد عشرات الفقراء – أو مئاتهم أو آلافهم – ولو فقراً نسبياً – كما يوجد تحت أقدام السيد الأعلى عشرات الملايين أو مئاتهم، يهتفون بحياته وبإسمه إذا بدا، ويخضعون لأوامره إذا غاب – وهكذا القول في كل ناحية من نواحي هذه الحياة المحكمة التعقيد.

وحينئذ فالمسألة ذات فرضين: أحدهما أن الحياة يجب أن تقوم على التنافس الحر المطلق الذي لا حدود له ولا قيود، وأن من عجز عن منافسة الآخرين ومغالبتهم في غرض من أغراضه أو شهوة من شهواته لزمه أن يعد نفسه مغبوناً محروماً، ووجب عليه ألا يقر له قرار ولا تهدأ له نفس ولا يبطل له مسعى حتى يوفي على كل شهواته وأغراضه وحتى يرد المنهل الذي ورده الآخرون السابقون... وأسلحته في ذلك إتلاف جسمه وإرهاق نفسه.

وثاني الفرضين أن يرى أن الأمر دون ذلك كله، وأن الدنيا ما هي إلا حاجة قليلة، يكفي منها ما أمسك الحياة، وأن التفاوت في مظهرها هو مثل التفاوت في مظهر الموت: يحمل عليها وليس منها، ويلون بها ولكن لا يكونها، وأن القميص الحريري يلبسه الحي بالنسبة للقميص القطني أو لما دونه، هو ككفن الحرير يلف به الميت بالنسبة لكفن القطن أو لما دونه، وأن المرء ليس إلى عقله وفكره وأخلاقه – أي ليس إلا ذاته المعنوية، وليس هو ما يتصل به إتصالاً مما ليس فيه ذاتياً.

أما الفرض الأول فهو ما لا شك في عنفه على البشرية وقسوته عليها. فإن البشر لا يستغنون في حال من الأحوال عن القرار والرضا – كله أو بعضه – بما هم فيه وإلا لهلكوا وعصفت بهم الحسرات... وما الرضا والقرار في هذه الحياة إلا كالظل والماء والخصب بالنسبة للصحراء المجدبة المشبوبة عليها الشمس

يجتذب كل من جارت به ضلالاته فعمي عن الطريق.

* * *

كل هذا يمكن أن يقال، وكثير منه صحيح، ولكن لن تكون نتيجته إثبات فضيلة الفقر والقناعة، ولن يدل بمجموعه على ذلك. وما تقدم في هذا الفصل يكفي قضاء في هذه القضية.

أما إن الإنسان لن يستغني في حياته عن العزاء الذي يهبه الرضا فمسألة تجل على الخلاف. ولو أن إنساناً ما فقد هذا العنصر النفسي فقداً تاماً بحيث لم يبق أمامه جانب واحد يرضيه ويعزيه، أو جانب واحد يحدث له بعض الرضا وقليلاً من العزاء لهلك لا محالة، إما إنتحاراً وإما أسى وحسرة. وكل إنسان إنما يعيش بقدر ما له في وجوده من آمال صادقة، أو كاذبة، تفيض على نفسه المتلهفة ألواناً مختلفة من هذين العنصرين الضروريين للحياة الإنسانية... ولكن ليس طريق ذلك هو الفقر والبؤس والشقاء، وإنما طريقه أشياء أخرى: منها رياضة المرء عاطفياً وعقلياً على الشعور بالسعادة وعلى الإحتمال الجميل وتلقي المكروه بالصبر والإبتسام، ومحاولة الخروج منه بالنصر والظفر دون الإستسلام، وأن يكون مثله مثل الجندي المغوار، يخوض ثبج الموت، ويدفعه باليمين وبالشمال وهو يهزج أهازيج الحياة – أو مثل الأمة الفتية المتوثبة، تتلقى الهزيمة الصارمة رافعة رأسها معتقدة أنها فترة إنتقال وتجربة قاسية لا بد أن تمر بها وأن تعبرها إلى ما هو أفضل وأعظم – وأن يعلم القدرة على الإستمتاع بكل ما يدرك من آماله وإن قل، وأن يكون كالحي النامي الصحيح، ينتفع بكل ما يقدم إليه من غذاء وشراء وهواء قابلاً غيره أيضاً.

ومنها إعطاؤه الصحة الكاملة والجسم القوي السوي. فإن الإكتئاب واليأس إنحراف في الطبع، وإنحراف الطبع نتيجة طبيعية لإنحراف الصحة. ولا تستبد الكآبة واليأس المقيم إلا بضعاف الأبدان، أولئك الذين لم يوهبوا أجساماً طبيعية قادرة على مواجهة الحياة العارمة بمزاج سليم وقوة فعالة. ولن يخر فريسة لهذه الإنفعالات السخيفة إلا أحد أولئك الذين جاءت أحد أجهزة أجسامهم وأجهزة الحياة فيهم ناقصة عليلة.

وإذا كان هذا حقاً – وهو حق لا ريب فيه – فإن الذي يهب الصحة والدين السليم القويم هو الغنى لا الفقر، وهو السعادة المادية لا الحرمان المادي. والفقر

والحرمان هما بلا شك أحد ما يعطي الأبدان العليلة العاجزة. وهذا الرضا الذي قلنا إنه لا بد منه للحي المريد المنفعل لا يمكن أن يحظى به الفقراء المحرومون، بل هو أبعد الأشياء عنهم. والفقر والحرمان يلازمهما – غالباً – السخط والحقد والشذوذ والإنفعالات الرديئة. وإذا وقع غير هذا فمن الأمور الشاذة التي لا يصح أن تكون قاعدة من القواعد.

ومحاولة نيل الرضا والقرار والهدوء بالإستسلام للفاقة تشبه محاولة الإستسلام للجهل والمرض وللعار الإجتماعي للإعتقاد أن التطلع إلى العلم والصحة والإرتفاع فوق العار مما يحرم الرضا والإستقرار والهدوء.

ثم إن الحياة وأهلها ليست وليسوا طوع أهوائنا، بل هي سائرة وهم سائرون في الطريق، شئنا ذلك أم أبيناه. فإذا نحن رضينا لأنفسنا القناعة واخترناها نصيباً فإن الآخرين لن يرضوا لأنفسهم هذا الذي رضينا، بل سيسيرون في الطريق الآخر، وحينئذ لن يدعونا في هدوئنا وسعادتنا النفسية الخيالية، بل سيزحموننا ويضغطوننا ويجلوننا عن أماكننا، كما حدث لنا ولأمثالنا من الواهنين العاجزين الراضين بكنز القناعة الذي لا يفنى، كما نقول في حكمنا التقليدية المخربة.

وأما القول بأن الجشع المادي هو الذي يوقع الحروب والشرور والعداوات بين الناس فهو قول فيه كثير من سمات الحق والصدق، غير أنه لا مراء في أن الفقر أو خوف الفقر، وأن الحاجة أو خوف الحاجة هما اللذان يوقعان بين الخلق أكثر هذه العداوات والإعتداءات، وأن اللصوص وأضرابهم من العادين على الأمن العام أكثرهم – ومن الممكن أن يقال بصدق كلهم – من المفلسين المفلوكين، وأن الحروب تقع بين الفقراء كما تقع بين الأغنياء، بل وأن وقوعها بسبب الفقر أكثر من وقوعها بسبب الغنى، وأن عهد الفاقة الإنسانية العامة لم يستطع أن يمنع هذي الحروب، بل وأن عهد القناعة والزهادة الدينية كان يشب الحروب على نطاق أوسع وأفظع مما تشبها عهود المادية المالية الجشعة. كل هذا صحيح لا ريب في صحته. فالدعوة إلى القناعة والزهادة لا تعطي الخير المرجو منها، ولكنها تجلب الشر المخشي منها فقط. فإن الإنسان مدفوع مسير بغرائز معينة أصيلة فيه. فإذا صادف دعوات دينية أو غير دينية تكافح في ظاهرها هذي الغرائز الطبيعية، كانت النتيجة أن تختفي هذي الغرائز عينها تحت مظاهر

http://www.ithar.com

أخرى قد تكون أعظم فتكاً وإيقاعاً بالإنسانية وبأصحابها. فتحسين الفقر والزهد والإرتفاع على حاجات الجسم وضرورات الحياة لن يستطيع أن يسلب الإنسان غرائزه هذه، ولن يستطيع أن يجعله كما يريد الداعي المزهد المحسن للزهد. بل ستكمن هذه المعاني لتبرز تحت قيادة مزاعم أخرى لتؤدي فتكها وفعلها في ضراوة وفظاعة أشد مما يتصور. فأنت إذا دعوت إنساناً إلى هذا الكنز الروحي المزعوم وأقنعته بأنه يجب عليه أن يزهد وأن يخلي الدنيا وأربابها وأحبابها وراءه، وألا تخطر أو يخطروا له على بال، وأن يعيش بروحه ومعناه، وأن يرفض بدنه وغرائزه، فلا تظن أن ذلك الإنسان قد أصبح كما تريد. إنك إذا ظننت هذا فقد بالغت في الظن. وإذن فلن يتنازل المرء عما جبل عليه من شهوات وطباع ومطامع تصدر عنها الشرور والعداوات والإعتداءات ما دام محتفظاً بطبيعته ولم يخلص منها ويصر شيئاً غير الإنسان.

وليس هناك شك في أن إفهام كل إنسان بأن الواجب عليه أن يبلغ الغاية في طلبه الدنيا وطلبه النجاح فيها، ثم إفهامه أن فيه القدرة الذاتية على ذلك إذا أحسن المسعى والجهاد، وأن كل نجاح وفوز في الحياة إنما يرجع إلى هذا – ثم بلوغه جميع ذلك أو كثيراً أو قليلاً منه – أقول لا شك أن الإنسان الذي يفهم هذي الأمور كلها ثم يفهمها يقل جداً إشتغاله بمعاداة الآخرين وحسدهم والحقد عليهم، ثم يقل جداً من العمل بمقتضى هذه المعاداة وهذا الحقد والحسد. فالمكبون على طلب الدنيا بمساع صحيحة جيدة هم أبعد من الكيد للآخرين والإشتغال بعدائهم من أولئك الضامرين المشتملين على الفقر والبؤس والحرمان، لأن هؤلاء سيلتهبون عداوة وضراوة على كل ساع ناجح، وسيوقعون به إذا استطاعوا ولو بإسم الدين أو بإسم العدالة الإجتماعية أو بإسم مقاومة الظلم والظالمين أو بإسم المساواة. ولهذا فإن الغوغى من المحرومين والبائسين هم في العادة الذين يقومون بالإنقلابات الدامية المرهبة. كل هذه حقائق ترتفع على الجدال والخلاف... على أن الفقر نفسه شر من جميع الحروب، بل هو حرب تفوق في أثرها كل حرب. فإذا خففنا من المادية ومن الإيمان بالمادية خشية أن توقعنا في الحرب المقوتة كنا مخطئين حقاً، لأن ما خفنا وفررنا منه أسهل وأخف جداً مما فررنا إليه ووقعنا فيه. فالحروب مع الغنى والثراء خير من السلم الدائم مع البؤس والشقاء...

وأما الحديث القائل: (انظروا إلى من دونكم ولا تنظروا إلى من فوقكم) فهو حديث يراد به التخفيف من حالة نفسية طاغية. ذلك أن الإنسان مجبول على الغيرة من الآخرين وعلى الحسد للمتفوقين الناجحين. والغيرة والحسد قد يجلبان الشر الكثير: بأن يتألم ويشقى الحاسد الغائر، ويؤذي ويظلم المحسود المنفوس عليه. وقد يترتب على هذين الأمرين شرور كثيرة وآفات إجتماعية شاملة... ويمكن تصور هذه الإحتمالات حتى فكرنا في شعب أو مجتمع كل فرد فيه يغلي غيظاً على من هو أرفع منه من شأن من الشؤون، ثم فكرنا أن هذا الغيظ قد يتطور إلى محاولة الكيد والإيقاع ما أمكن. وأقل ما لهذه الحالة من إحتمال أن يفقد الإخلاص والتعاون والحب والإنسجام بين أفراد هذا الشعب. وعاقبة هذه الآفات لن تكون سوى الإنحلال العام الذي لا ريب فيه. فكان لا بد من وضع علاج لهذا، وكان من المعلوم أن البشر كما يتحاسدون ويتغايرون فإنهم يتأسى بعضهم ببعض ويخفف آلام فريق منهم آلام الآخرين على حد قولهم المشهور: (إذا عمت المصيبة هانت.) أما الإنفراد بالألم وبالظلم الإجتماعي وبالمصيبة فهذا ما لا يطيقه الإنسان. فكان من الصواب إذا أن يلفت المصاب إلى المصابين، ويدل المتألم على مكان المتألمين ليهون هذا من شعوره بالرزء ومن إحساسه بالبلوى. فأرشد إلى أن ينظر من هم أشد منه هولاً وخطباً ورزءاً. ولكن ليس معنى هذا الرضا والإستسلام لتلك الحالة، كلا، وإنما معناه التعزية مع التحريض على الخروج من المصيبة بالسرعة والقوة كلها... وكأنه في معنى أن يقال: لا تهلك أسى وجزعاً، فإن أمامك من هم أفدح خطباً، ومع هذا لم يهلكوا ولم يحاولوا أن يهلكوا، بل حاولوا النجاة فنجوا، وطلبوا الصعود فصعدوا، فليكن لك فيهم الأسوة والإقتداء...

وأما قوله تعالى: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا" فهو في موضع النهي عن الحسد وعن التطلع إلى ما في حوزة الآخرين، فإن هذا هو صنيع الأطفال والنساء العاجزات. وهو صنيع لا يوصل إلى غير الألم والغيظ والحقد. ولكن العاقل اللبيب يجب عليه أن يطلب لنفسه وأن يسعى لها وأن يبلغها كل آمالها إن استطاع من زهرة الحياة الدنيا وغيرها بدون أن يأكل أنامله ونفسه تشوفاً إلى ما متع به غيره من عبادة الله. فالآية في معنى غير معنى الزهد والقناعة الهابطة بالهمم وبالجهود والأعمال والإنتاج الإنساني.

http://www.ithar.com

فالواجب علينا أن نشيد ثقافتنا وتربيتنا على تحبيب الحياة وتحبيب العمل من أجلها، وأن نمقت بكل قوانا أمثال حكمة ذلك السفيه القائل: (زيادة المرء في دنياه نقصان) وأن نؤمن بذلك القول الجديد الجميل في تعريف معنى السعادة: (إنها هي القدرة على العمل.) نعم، إن السعادة هي القدرة على العمل، وليست هي العمل بدون القدرة عليه، وليست أيضاً هي البطالة والكسل ذهاباً وراء ذلك المخدر القديم الشنيع: الزهادة أو القناعة.

كان الرسول عليه السلام يتعوذ ويقول في تعوذه: (اللهم إني أعوذ بك من الفقر والكفر) فقالوا له يا رسول الله: وهل يكون الفقر عدل الكفر – أي مثله –؟ فقال: (نعم هما عدلان) حديث صحيح.

أجل إن الفقر والكفر عدلان، لأن الكفر إنفصال عن السماء والفقر إنفصال عن الأرض، فالكافر لا مكان له هناك، والفقير لا مكان له هنا: فهما إنفصالان عن جانبي العالم... وهما عدلان أيضاً، لأن الكفر جحود القلب والفقر جحود الجوارح والأعضاء... وهما عدلان أيضاً، لأن الكفر كثيراً ما يكون مصدراً للشر والعدوان ونشر الفوضى الإجتماعية المجنونة، وكذلك الفقر يؤدي هذه الرسالة الخبيثة نفسها. وهما عدلان أيضاً لأن الكفر يجرد من العاطفة الدينية المحسنة أحياناً، والفقر يجرد من العاطفة الإنسانية. وهاتان العاطفتان هما الدائنتان لهذا العالم بكل ما فيه من خير وفضيلة وإحسان... وهما عدلان أيضاً، لأن أحدهما عذاب في أول الوجود والآخر عذاب في آخره، ولأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً، ولأن أحدهما عجز في العاطفة والآخر عجز في الوسيلة والحيلة... وهما عدلان أيضاً، لأن الإيمان يقع هكذا: يتصل الإنسان بالوجود فيحسه فيدرك جماله فيؤمن بمصدر هذا الجمال الذي هو الله. والفقير عاجز عن ذلك كله، لأنه لا يتصل بالوجود إذ هو مفصول عنه بحرمانه، فلا يحسه، فلا يدرك جماله، فلا يؤمن بسبب الأسباب... ولأن حواسه مغلقة أيضاً فلا تحس ما يقع حولها.

ثم إن هذي السلسلة المؤدية إلى الإيمان إنما تدرك بآلتها، وآلة هذا الإدراك إنما هو الخيال والقلب والعقل والحواس القوية المفتحة... وجميع هذي القوى الإنسانية معطلة في الفقير، لأنها فيه مشغولة بجراح الفاقة وتباريح الفقر... وإننا لن نرجو من إنسان يكابد أشد الآلام الجسدية والنفسية أن يستمتع

بخيال مشبوب، أو قلب فياض بالعواطف النافعة، أو بحواس ملهمة موحية، أو يشعر بالجمال الذي يحيط به.

ثم إنه – أي الفقير – لا يرى شيئاً من جمال هذا الوجود لأن كل ما هو فيه وما حوله من أولاد وأهل ومأوى ومطعم ومشرب وملبس قبح ودمامة، فلن يؤمن إذن بمبدأ الجمال، ثم لن يؤمن بمبدأ العدالة والحكمة، إذ لا توجد العدالة والحكمة حيث لا يوجد الجمال لأنهما من أقسامه ووجوهه، ثم لن يؤمن بوجود القدرة المختارة المنظمة المهيمنة، إذ لن تؤمن بالحكيم المنظم المهيمن القادر إلا إذ شاهدت آثاره ودلائله...

ثم هو إذا آمن إنما يؤمن إيماناً تقليدياً أو إضطرارياً لا خير فه ولا جمال ولا روح ولا برهان... فيكون إيماناً كله الجفوة والقسوة والضعف والعنف... والإيمان الذي يكون بهذه الصورة ما مثله إلا كمثل المرأة الفاقدة لكل معاني الأنثى من الجمال والجسم والروح والخلق – أو كمثل الأرض التي لا خصب ولا ماء ولا معدن فيها.

وإذن اللهم إنا نعوذ بك، كما عاذ رسولك، من الفقر ومن الكفر.

http://www.ithar.com

هل في سنن الله محاباة

الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم

كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة

ينشىء رجل مسلم متجراً أو مصنعاً في مكان ما، يعرض فيه نوزعاً من أنواع المصنوعات أو غير المصنوعات، فيقضي له سوء تفكيره وتقديره بالكساد، فيظل يموت جزءاً جزءاً حتى يودع أنفاسه، أو يبقى عاجزاً عن الموت وعن الحياة، بدون أن يحاول في الأكثر الغالب العلاج أو الخلاص، فإذا ما زرته – أو عدته – قبل نهايته وفطنت لحالته وقلت له: لماذا أنت هكذا، ولماذا خصصت بالكساد دون الآخرين، ولماذا تصبر على هذا الموت البطيء المحقق، ولماذا لا تحاول الخروج من هذا المأزق، ولماذا لا تغير المكان أو النوع أو طريقة العرض – ومن المعلوم أن الأسباب الطبيعية للكساد الصناعي أو التجاري ثلاثة أمور: مكان العرض، فقد يكون إختيار المكان خطأ، ونوع المعروض: فقد يكون النوع المعروض غير مطلوب، وطريقة العرض والمعاملة وتقدير القيم والأسعار: فقد تكون الطريقة سقيمة منفرة – إذا ما وجهت هذه الأسئلة أو بعضها إلى ذلك الجاهل بسنن الحياة ونظام الكون، الجاهل بالله، قال لك – وكله ثقة وإيمان بما قال: إن الرزق والنجاح ليسا (بالشطارة) ولا بالجدارة، ولا بالبراعة ولا بالمكان ولا بالأسلوب ولا بالمعروض والعرض... وإنما ذلك كله بالحظ وبالقضاء والقدر – والمقضي المكتوب لك سيأتيك ولو اشتددت هرباً منه بل ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه... فلا معنى إذن للتغيير والتبديل ولا معنى للنقلة والإرتحال... ثم يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة، مغمضاً عينيه عما حوله وعن الوجود السائر الدائر، فتطويه كما طوت الملايين قبله وكما ستطوي الملايين بعده.

ومن الطرائف المخزية في هذا الموضوع أني عاملت مرة إنساناً من هؤلاء فوجدت معاملته للناس شاذة قاسية، فقلت له كأنك لست حريصاً على أن يعاملوك، وكأنك لا تريد النجاح ولا الفوز، فإن هذه المعاملة مما يبعد الذين

ذاقوها ورأوها وشهدوها عنك... فتعجب من قولي ورآه جد باطل، بل رآني بهذا قد كفرت أو كدت، لأني اعتقدت أن الأرزاق والنجاح بالأسباب والمعاملات لا بالأقدار والأقضية... وأخذ يسرد عليّ روايات وفصولاً يزعم أنه فعلها بالناس. وذكر لي فيما ذكر أنه مرة ضرب إنساناً كبيراً جداً عامله وطرده من حانوته وسبه أقذع السب، ووجه إليه ضروب الإهانات على مسمع من الجماهير وعلى قارعة الطريق! ثم قال لي! ما تظن هذا الإنسان الكبير قد صنع بعد هذا الهون المرير؟ قلت: أظنه ذهب ثم لم يرجع! قال إنه بعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جاء إليّ متلطفاً متخضعاً طالباً الغفران والنسيان، كأنه المجرم الآثم، وكأني المظلوم المغبون... ثم أردف معلقاً: أرأيت أن الرزق ليس بالمعاملة ولا بالحسنى ولا بالأسباب ولا بشيء مما تدعي وتحكي... فغمرني بجهله العميم، وأفحمني بسخفه فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده مفكراً في عاقبة الجهل والضلال، ومتعجباً من إستعداد الإنسان لأن يكون أضل من الأنعام... وليست هذه الحكاية فريدة في الموضوع، بل سمعنا وسمع القراء المئات بل الألوف من أمثالها! ونحن نسمع هذا أينما ذهبنا وتوجهنا! بل أكاد أقول إن كل الناس عندنا يقولون كما يقول هذا الرجل، ويرون كما يرى، ويفكرون مثل ما فكر، ويعاملون معاملته... هذا رأي الرجل الجاهل بالحياة وهذا عمله.

أما الرجل الآخر الذي عرف سنن الحياة فإنه إذا ما أنشأ مصنعاً أو متجراً أو قام بعمل من الأعمال، فلم يجر أمره على ما يريد ويؤمل، فإنه يعلم كيف يتلافى أمره وكيف يتقي الخطر قبل وقوعه. ولا يمكن أن يستسلم للدمار والضياع قائلاً. إن المسألة مسألة حظ وقضاء وقدر... ثم لا يلبث أن يخرج منتصراً وأن ينجو مما ظن خطراً مبيداً محيطاً... وإذا ما تصورنا هذا المثل تصوراً صحيحاً وفكرنا فيما يمكن أن تكون نهاية الرجلين اللذين ضربناهما مثلاً، لم يعسر علينا كثيراً أن نفهم لماذا كان الرجل الأول فقيراً متأخراً ضعيفاً صغيراً في كل أمر يتعاطاه، ولا لماذا كان الرجل الآخر غنياً قوياً كبيراً في كل شيء يتناوله.

* * *

قال أحد الشعراء في أحد الجائدين المجانين:

يعطي ويمنع لا عقلاً ولا سفهاً
لكنها خطرات من وساوسه

وقال آخر في آخر:

ما زال يعبث بالمكارم جاهداً
حتى ظننا أنه مجنون

يريد قائل هذا الشعر أن ذلك الإنسان الذي عناه بشعره يتصرف فيما يملك تصرفاً ليس دائناً لقانون، ولا قائماً على حكمة ولا على إستحقاق، فيعطي من يعطي، ويمنع من يمنع، ويعز من يعز، ويذل من يذل، ويكرم من يكرم، ويهين من يهين: يفعل ذلك لا لأن أحداً من هؤلاء خليق بما صنع، ولا لأنه أتى من الأعمال أو الأسباب ما يستحق عليه ما ناله... ولكن لأن مشيئته العمياء المطلقة رأت أن تفعل ذلك، ولأن إرادته المجردة من كل عقل ونظام أحبت أن تصنع ما صنعت، ولأنه قادر وماذا يمنع القادر السفيه من أن يتصرف مثل هذا التصرف الذي قيل فيه: (حتى ظننا أنه مجنون) وقيل: (لكنها خطرات من وساوسه...) وليس من ريب أن نظاماً من النظم يقوم على هذا الأسلوب لا يمكن أن يترعرع في كنفه سوى الجهل والفوضى والإنحطاط والكسل والنفاق والملق الكريه... ولا يمكن أن يكون مثل هذا النظام مشجعاً للعبقرية ولا مساعداً للنبوغ على البروز، ولا شاحذاً للمواهب الإنسانية الكريمة.

وقد مرت عصور طويلة بالبشر كان هذا النظام القبيح المجرم هو حاكمهم وقائدهم، فكان الناس إذ ذاك تحته أمثلة للسوء والجهل وتلاشي الكفايات وإندحار الفضيلة وإختفاء النبوغ... وكل هيئة إجتماعية تسوي في حكمها وتقديرها وجزائها بين المحسن والمسيء وبين فاعل الخير وفاعل الشر، وبين النابغة والجاهل – بله تفضل الأخير – هي هيئة لا يرتجى لها بالضرورة تقدم ولا خير.

وهؤلاء الجاهلون بالله وبحكمته يرون في أفعاله وفي تصرفه في خليقته مثل رأي هؤلاء الشعراء فيمن عنوا بشعرهم: فيرون أنه تعالى لم يضع نظاماً دقيقاً لا فرار منه يلقي كل جزاءه على مقتضاه، ويأخذ كل على حسب ما يعطى، ويحصد كل إنسان على قدر ما زرع، وينجح كل إذا درس وفهم، ويسقط إذا هو لم يفعل ذلك... ويرون أن هذا العالم في يد الله كلعبة في يد صبي يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بلا تفكير ولا تدبير: فعندهم أن الإنسان قد يستوفي كل شروط الغنى أو شروط الصحة أو الشروط اللازمة لأن يكون إنساناً محترماً ناجحاً في

http://www.ithar.com

الحياة، ثم لا يدرك شيئاً منها... بل عندهم ما هو أقبح مما ذكر، وذلك أنهم يرون أن القاعدة العاجز قد يبلغ ما يؤمله من الفوز والنجاح بينما يهوى الجاد الحازم العامل الخليق بكل نجاح في الحضيض كل أيام حياته. ولا مقتضى لهذا سوى مشيئة الله المطلقة وقضائه الغالب. ومن أجل هذا الإعتقاد فإنهم لا يمكن أن يهبوا لأعمالهم كل ما فيهم من إستعداد ولا كل ما وهبوا من حول وقوة: فلا الزارع محتاج إحتياجاً صحيحاً لأن ينفق على مزرعته كل ما يمكن من الخدمة والعناية، ولا الصانع محتاج إلى ذلك لإخراج صناعته كما يجب أن تخرج، ولا الطالب للعلم يعلم علماً صحيحاً بأنه لن يصل إلى ما يشتهي من الدرجات إلا بقدر ما أعطى من الإجتهاد والدرس واليقظة، ولا التاجر يدرك أن نجاحه متوقف على ما فيه من صفات ومن إدراك لأخلاق الجماهير وقدرة على الأخذ بقياد أنفسهم، ولا على ما في تجارته من إغراء وميزة، بل ولا الجيش وقادته – لو كان لنا جيش وقادة – يعرفون أن النصر والهزيمة أمران يتجاذبهما أمران: الكفاية والنقص، وأن مع الكفاية النصر ومع النقص الهزيمة، ولا هيئة من هيئات الأمة تعتقد إعتقاداً لا يمزجه الشك أن نجاحها وفشلها مرتبطان إرتباطاً لا إضطراب ولا فوضى فيه بطريقة سلوكها بحيث تسقط سقوطاً محققاً إذا لم تصنع كل ما يجب صنعه، وتفوز فوزاً محققاً إذا فعلت كل ما يجب مع إستيفاء الأداة وإستجماع الشروط... بل المسائل كلها محكومة بالصدف وبالحظوظ وبالأقدار والأقضية التي يتصورونها تصوراً أملاه الجهل وحده... وكم تسمع من عبارات السخرية والإتهام إذا حاولت أن تقنع من يتصلون بك ومن تلقى أنهم لن يدركوا من هذه الحياة إلا بقدر ما أعطوها من عمل وعقل، وأن قضاءهم وقدرهم وحظوظهم تأتي أبداً صورة صحيحة موافقة لأعمالهم وعقولهم ولون إستعدادهم: فإن كانت الأعمال والعقول مظلمة مشوشة كانت صورتها كذلك وإن كانت مضيئة مشرقة جاءت كذلك أيضاً، جزاء وفاقاً.

ولقد زعم كل هؤلاء حينما توالت إنتصارات ألمانيا في بداءة هذه الحرب أن هذه الإنتصارات إنما حصلت لأن الله يريد أن يهزم أعداء ألمانيا لا لأن لديها من الأسلحة والجنود وخطط الهجوم ما ليس عند أعدائها، ثم لما أن تغير مجرى الحرب وأخذت الهزائم الألمانية تتلاحق ثم هزمت في الخاتمة الهزيمة النهائية

رجعوا يزعمون أن المسألة أيضاً راجعة إلى تغير مجرى القضاء والقدر والمشيئة الإلهية لا إلى تغير الأسباب وإختلافها. وقد ألقيت في هذا الخطب والمحاضرات وكتبت المقالات! وهكذا يحكمون في كل قضية، وبهذه العين يبصرون جميع الأحداث والحوادث.

وهذه المسألة هي الآن حقيقة مدرجة في جداول الحقائق التي انحسر عنها كل ريب وإن كانت لا تزال عند الآخرين الذين لم يستطيعوا أن يرفعوا عن أذهانهم قناع الجهل المنسوج من خيوط التقاليد الجاهلة ضرباً من ضروب الضلال أو الكفر والمروق... ولفهم هذه الحقيقة الأثر البارز الفعال – كما لجهلها ذلك – في تقرير مصاير الجماعات والشعوب وفي توجيهها مختلف الوجوه والجهات.

ولسنا في حاجة إلى التوكيد بعد هذا بأن الأمة التي تضل في فهم هذه الحقائق تضل ولا محالة في سبيلها، وأنها إن لم تعرفها حق معرفتها فلن تعرف طريقها حق معرفته. بل إن هذه الحقيقة بمثابة نقطة من عندها تبتدىء وتختلف جهود الأمم وطرقها إما إلى النجاح والفوز، وإما إلى الفشل والدمار.

ومن اليسير علينا وعلى من يشك من القراء في هذا أن نستملي أنفسنا وأن نتلمس وجه الصواب فيه من أخلاقنا جميعاً. فإن من العسير جداً أن نبذل في طلب أمر من الأمور أقصى الطاقة وأحسن الأعمال، وأن نوجه إليه كل ما فينا من إستعداد وحول، ونحن نعتقد أن إدراك الأمور ليس قائماً على سنة ولا مربوطاً بنظام، وأننا قد نحسن كل الإحسان في تناولنا الأشياء ثم يكون نصيبنا الخيبة، وأننا قد نسيء كل الإساءة ثم يزرع في سبيلنا النجاح والظفر، وأن الإساءة والإحسان هما سواء في العواقب والنتائج، أو أن نتيجتهما ليست مترتبة عليهما كترتب المعلول على علته. فإن الإنسان، من أجل ضمان تنشيط هممه وإفراغ كل ما فيها من قوة، محتاج إلى إقناعه بأن مثقال ذرة واحدة من عمله لن يذهب سدى ولن يضيع في مهب الحظوظ والأقدار والفوضى الجارفة، وأن جزاءه وعاقبته محسوبان حساباً دقيقاً بما يؤديه جسمه وعقله من نضال. فقد شوهد أن الجماعات التي يحكمها هذا النظام تفسد أخلاقها وتفتر هممها بل تخمد وتعجز عن الإنتاج والتبريز في ميدان العقل وميدان العمل معاً، بل تنتشر بين أمثال هذه الجماعات أخلاق أخرى مضادة لذلك كالكذب والدجل والغش والتزوير... وقد رأينا أناساً في بيئات معلومة يزورون إزوراراً ممزوج

http://www.ithar.com

بالكراهة والمقت عن كل ما يسمى علماً وتهذيباً وما يسمى عملاً وخيراً يقدم. لأنهم وجدوا بالتجربة والمشاهدة أن الوصول إلى الغاية المرجوة ليس مشروطاً بشيء من ذلك أو ليس متوقفاً عليه، ووجدوا أن ناساً وصلوا إلى أغراضهم بدون أن يتكلفوا التضحية بمسراتهم العاجلة الصغيرة بمحاولة تحصيل شيء مما نقول نحن ويقول العقلاء جميعاً: إنه شرط للنجاح الصحيح، ومن سنة الحياة التي نفتش عنها أن جعلت تكاليف المجد باهظة، فلا يقدم على تقديم هذه التكاليف من رواد المجد إلا من كان الدافع المغري له قوياً جداً... ومن علم أو ظن أن تضحيته قد تذهب عبثاً أو أنه لا قيمة لها من ناحية الواقع فأنى يجد من نفسه وفي نفسه ما يغريه بهذه التضحية وما يلزمه إياها؟

إن هذه التضحية تحتاج دائماً إلى أمرين لكي تكون خالصة صادقة: أحدهما إزالة الموانع المادية والمعنوية، وثانيهما الإيقان بقيمة النتيجة التي ستؤدي إليها هذه التضحية، مع الإيمان بجسامة الخسارة التي يؤدي إليها إهمالها.

وليس من ريب في أن من ظن أن الجزاء ليس ملازماً للعمل ولا مترتباً عليه وأن النتيجة ليست على قدر الوسيلة وأن الأخذ غير مساو للعطاء، فقد قامت في طريقه الموانع، ولم يوقن بقيمة النتيجة، ولا آمن بجسامة الخسارة التي تلحقه إذا ترك التضحية. فهو إذن فاقد للأمرين معاً. فكيف نرجو له أن يؤدي هذا الثمن الباهظ؟

* * *

ومن الأمثلة السيئة للجهل بسنة الحياة، أو بسنة الله في الحياة، أن الناس يريدون – وهم يعتقدون أنهم سيصلون إلى ما يريدون – أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنوية بغير وسائلها الطبيعية: فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة، وأن تخصب أرضهم ويزكو زرعهم وتنمو أنعامهم، وأن يحصلوا المعارف الغزيرة وأن ينجحوا في الإمتحانات، وأن ينصروا على الأعداء وعلى أسلحتهم وجيوشهم وأموالهم وعلومهم، وأن يدركوا كل ما يبغون ويشتهون... بماذا؟ إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرد تارة، وبالبكاء والضراعة تارة، وبالصلاة تارات، وبالصيام أخريات، وبالإيمان حيناً بلا عمل، وبالتقوى أحياناً، وبقراءة القرآن، أو بترتيب الأذكار والأوراد والأحزاب... ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة – والدين

والقرآن بريئان مما يزعمون.

وإن أوغل من هذا كله في الضلال ما ذكره الغزالي في كتابه (منهاج العابدين) من أن المؤمن المشغول بعبادة الله وذكره غير محتاج إلى الطعام وإلى الشراب من أجل حفظ الحياة، زاعماً أن التسبيح والتهليل يحفظان الحياة ويغنيان عن حاجاته المادية كحال الملائكة، وزاعماً أيضاً أن الطين والتراب يغنيان كذلك عن ذلك، ذاكراً أن جماعات من السلف الأولين المشغولين بالله كانوا يستفون التراب فيصيره الله في بطونهم غذاء، وأن جماعات أخرى كانت لا تأكل شيئاً: لا طعاماً ولا شراباً ولا طيناً ولا تراباً وكانت تعيش بالعبادة وحدها، وأنهم كانوا يطوون الشهور بعد الشهور قال: "والله قادر على ما يشاء."[1] ويقرب من هذا أيضاً إيغالاً في الخطأ وولوغاً في الباطل ما جاء في كتاب (الحاوي للفتاوي) تأليف الشيخ السيوطي أن الصوفية، أصحاب القلوب النقية، يلهمون معرفة الطب الطبيعي إلهاماً من غير تعليم ولا طلب ولا دراسة، وأنهم لا يكادون يخطئون في إلهامهم، وأنه يجوز لهم معالجة المرض بهذا الإلهام، ولا يجوز أن ينكر عليهم

(١) وكتاب (منهاج العابدين) قيل إنه آخر ما ألف الغزالي. وقد حكى في أوله من الكتب التي يقع عليها إجماع المسلمين ويعم بها إنتفاعهم. وحكى في هذا الكتاب – وهو في صدد ما يعطاه الولي من السلطان والتصرف – قال: "الخامسة عشرة – يعني من صفات الولي – البركة العامة في كل شيء من كلام أو نفس أو فعل أو ثوب أو مكان، حتى يتبرك بتراب وطئه وبمكان جلس فيه يوماً وبإنسان صحبه ورآه حيناً. السادسة عشرة: تسخير الأرض من البر والبحر حتى إن شاء سار في الهواء أو مشى على الماء أو قطع وجه الأرض بأقل من ساعة. السابعة عشرة: ملك مفاتيح الأرض، فحينما يضرب بيده فله كنز إن أراد، وحينما يضرب برجله فله عين ماء إن احتاج، وأينما نزل فله مائدة تحضره إن قصد. الثامنة عشرة: تسخير الحيوان من السباع والوحوش والهوام وغيرها، فتحبه الوحوش وتبصبص له الأسود. التاسعة عشرة: القيادة والوجاهة على باب رب العزة فيبتغي الخلق الوسيلة إلى الله بخدمته، وتستنجح الحاجات من الله بوجاهته وبركته. العشرون: إجابة الدعوة من الله: فلا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، ولا يشفع لأحد إلا شفع. ولو أقسم على الله لأبره بما شاء، حتى إن منهم من لو أشار إلى جبل لزال، فلا يحتاج إلى السؤال باللسان، ولو خطر بباله شيء لحضر ولا يحتاج إلى الإشارة باليد."...

وحكى في موضع آخر من هذا الكمتاب وهو يتكلم عنم العزلة: "لا أرى مثل هذا الرجل – يعني المعتزل للناس – إلا ويمكنه الله من حضور الجماعات والجمعات وسائر جموع الإسلام لئلا يفوته الحظ منها فإن جموع الإسلام من الله بمكان وإن تغير الناس وفسدوا. كذا سمعنا عن الأبدال أنهم يحضرون جموع الإسلام أين كانت، ويسيرون من الأرض حيث شاءوا، وأن الأرض قدم واحدة لهم. وفي الأخبا أن الأرض تطوي وينادون بالتحيات ويتحفون بالبر وأنواع الكرامات."...

هذه ألوان من علم الغزالي الذي أبى غلو الناس فيه إلا أن يدعى حجة الإسلام.

http://www.ithar.com

منكر! ومن أشنع ما في هذا الكتاب رسالة (المنجلي في تطور الولي.)

وذكر الشيخ القسطلاني في شرحه على البخاري عن ابن أبي جمرة قال: "قال ولي من العارفين عمن لقيهم من السادة المقر لهم: إن صحيح البخاري ما قرىء في شدة إلا فرجت ولا ركب به مركب فغرق."...

وقد دهم الديار المصرية وباء مزعج منذ سنين فاجتمع العلماء في الجامع الأزهر وقرأوا البخاري لرفع هذا الوباء! وقبل هذا قرأ جيش عرابي باشا البخاري رجاء النصر في معركة المدفع والبارود والرصاص والأسطول! وهذا شيء ما زال الناس يفعلونه منذ مئات السنين، ولا يزالون إلى اليوم يفعلونه.

ومن المشاهد المتكررة المألوفة أن تسمع القرآن يتلى في متجر أو في بيت رجاء زيادة الربح ونفاق السلعة وإقبال الناس، أو رجاء النجاة من اللصوص وسائر الآفات.

ويوجد الآن في المكتبات العامة ألوان مختلفة من الكتب والرسائل التي زعم أن قراءتها كتعاويذ، وأن حملها كتمائم، وأن الإحتفاظ بها ككنوز، يغني من فقر، ويشفي من سقم، ويحمي من عدوان، ويبلغ كل مأمول... حتى المرأة العقيم والرجل العقيم قيل لهما: إن هذه الكتب تهبكما الأولاد – وحتى من يريد الزواج، أو تريده، يلقيان فيها ما يرجوان.

ومن أشنع الأوهام أننا سمعنا – وسمع كثير من القراء بلا شك – خطباً تلقى في المساجد حينما انطلقت الغارات الجوية على مصر منذ سنوات، يندد فيها بجهل من يلجأون حين الغارات إلى المخابىء، مزعوماً فيها أن المخابىء والملاجىء لا تعصم من الموت، وأن الفرار إليها نقص في اليقين وجرح في الإيمان، لأن الذي يعصم من ذلك هو ذكر الله ودعاؤه والتوبة إليه والخلاص من الذنوب... وقد نسي هؤلاء القائلون الناعقون فوق منابرهم سنة الله في خلقه، كما نسوا سنة مصلح الإنسانية الأكبر صلى الله عليه وسلم الذي يخطبون بإسمه؛ فإن من أظهر وأكبر أعماله التاريخية أنه حينما اضطر إلى الخروج بدينه ودعوته من مكة المشركة وخاف مطاردة أعدائه المشركين له لجأ إلى غار ثور التاريخي المشهور هو وصاحبه الصديق. ولم يأخذا بما زعمه هؤلاء الخطباء من الإعتصام بالدعاء والبكاء، بل أخذا بسنة الحياة... وهكذا فعل عليه السلام في كل أفعاله وحياته، وهكذا فعل خلفاؤه الراشدون وأصحابه المهتدون. ولهذا

نجحوا. ولو أنهم كانوا يذهبون مذاهب هؤلاء لأخفقوا ولما بلغوا من أمرهم شيئاً... وقد كان من أعظم الفروق بينه عليه السلام وبين المشركين أنه كان يعلم سنة الله في خلقه ويعمل بها تاركاً الأوهام جانباً. أما هم فقد كانوا غرقى إلى الأذقان في أوهامهم التقليدية البالية. فكان عليه السلام ملتفتاً إلى ما وضعه الله من أسباب وسنن مضبوطة، وكانوا هم معولين على الإستقسام بالأزلام وعلى التشاؤم والتيامن وعلى السوانح والبوارح، وعلى نعيق الغراب وغيره مما يتشاءمون منه أو يتيامنون، وعلى الإحتجاج بالقضاء والقدر والحظوظ، وكل ما هنالك من تقاليد كانت تأخذ بالأكظام وتتحكم في الأحلام: فكان الفرق عظيماً، وكانت العاقبة أعظم.

ومن أخرج الناس على سنة الله وسنة الحياة قوم حاولوا أحقاباً طويلة – ولا يزالون يحاولون اليوم وسيظلون يحاولون بعد اليوم أيضاً – أن يتغلبوا على المادة وعلى خصائصها بالأرواح وعمل الأرواح، وأن يصلوا بقوتها وعونها إلى ما يريدون ويشتهون – سواء أكانت هذه الأرواح هي أرواح الموتى أم الشياطين أم الملائكة... وقد ظلت هذه العقيدة تتطور مسايرة تطور العقل البشري ومسايرة تطور عقل كل شعب. وما فتئت حتى اليوم خاضعة لسنة التطور.

وقد كان الأولون ينسبون إلى الأرواح أغلب حوادث العالم المشهودة المرئية أو كلها: فالأفلاك العلوية عندهم إنما تسير بقوة الأرواح، والأنهار إنما تجريها الأرواح، والسحاب إنما تسوقه الأرواح، والرعد والبرق إنما هما عملان من أعمالها، والرياح لا يزجيها سواها، والنبات إنما ينبت بقوتها وتدبيرها! بل الكلام البليغ الذي يقوله الشاعر أو الخطيب إنما تقوله الأرواح: فزعموا أن لكل شاعر شيطاناً ينطق على لسانه ويفكر بجنانه، حتى الأمراض جعلوها مظهراً من مظاهر الأرواح ومظاهر تصرفها في البشر... فكان للأرواح عند تلك الأمم السلطان الشامل. وقد بقي حتى اليوم شيء كثير من هذه العقيدة عند كثير من الأمم، بل عند الأمم كلها لا يستثني منها أمة واحدة.

وقد كان من أثر هذه العقيدة الروحانية أن أنفقت البشرية جهوداً ما أكثرها وأعظمها في سبيل إرضاء هذه الأرواح وسبيل دفع غضبها وشرها. وقد كانوا أحياناً يلجأون إلى تعذيب المريض بالضرب والكي بالنار والسب والإهانة، حاسبين أنهم بذلك يخرجون منه الأرواح الشريرة النازلة في بدنه الناطقة على

لسانه! ومن الحوادث القريبة المعروفة في هذا الصدد تلك الحادثة التي وقعت منذ شهور في مصر وكتبت عنها الصحف وقدم المتهم فيها إلى القضاء... والحادثة تتلخص في أن جاهلاً من هؤلاء الجاهلين المنتشرين في كل مكان، الذين يعالجون الأرواح ويعرفون الخلاص والتخلص منها، تقدم إلى أهل مريض مدعياً لهم أن روحاً خبيثة تحتل بدن مريضهم، وأنه يستطيع أخراج هذه الروح فسلموا له المريض، فراح يعذبه بالضرب وصنوف العذاب لتتألم الروح فتخرج! ولكن كانت العاقبة أن هلك المريض تحت العذاب، فأخذ هذا الطبيب الروحاني على إعتباره قاتلاً... وهذه الحادثة ما هي إلا واحدة من مئات الحوادث أو ألوفها التي تقع. ولكن الذي يكتب عنه وفيه منها قليل نادر... ولا يزال الملايين اليوم من المسلمين الجاهلين يرون أن كثيراً من الأمراض – ولا سيما الأمراض العقلية والعصبية والصدرية – إنما هي من عمل الشياطين والأرواح المتمردة، ولا يزالون يعالجونها على هذا الزعم والحسبان: يعالجونها بالعزائم والطلاسم والبخور والأمر والنهي والزجر والضرب والإهانة للمريض، على زعم أن هذا كله موجه إلى الروح اللابسة له.

وقد قدم إلى القاهرة منذ سنوات من الريف المصري إنسان مريض بمرض عقلي عصبي، بحيث كان يخيل إليه أن أشياء تحدث في جسمه وهي لا وجود لها... فذهب إلى إحدى الجمعيات الدينية في القاهرة فأفهمه رجالها أن مرضه ما هو إلا مس من الجان وأذى من الأرواح، وأن الوقاية منها تتلخص في أن تكتب آيات من القرآن في إناء بالمداد والزعفران ثم يغسل ذلك الإناء ثم يشرب الغسالة، وأن الشفاء بذلك مضمون!... فصنع هذا كله فلم يشف، ثم حدث عن معالج من الأرواح بالأرواح، وهو محضر لها، فصار إليه فعقد له ذلك المحضر عدة حفلات روحية جاء فيها تشخيص المرض ووصف العلاج اللازم، ثم جاء فيها أن المرض قد زال نهائياً، وأن المريض شفي، وأنه لن يشعر بشيء مرة أخرى، فرجع إلى بلدته مؤمناً بأنه قد عوفي... ولكن ثبت بعد هذا أن الأرواح قد كذبت في علاجها، وكذبت في تشخيصها، وكذبت في حديثها – أو أن محضرها هو الكاذب الآفك. فعاد المرض وعاد المريض يشكو شكايته القديمة، وصارت نهايته إلى اليأس والقنوط.

ولا يزال الناس يحاولون الإتصال بالشياطين، بل ويزعمون أنهم قد اتصلوا

بها، ولا يزالون ينسبون إليها كثيراً من الحوادث اليومية، ولا يزالون يخافون بطشها وإيقاعها بهم، ولا يزالون يزعمون أنهم يستخدمونها أو أنه يمكن إستخدامها، بل وأنها قد قامت بخدمتهم فعلاً...

ومنذ شهور قليلة قام بيني وبين إنسان عالم نزاع في هذا. وقد زعم هو بأن العفاريت يتصرفون في هذا الدنيا، وأنه يعرف إنساناً كانوا يخدمونه ويحضرون له الفاكهة من بلاد أخرى في أوقات تفقد فيها الفواكه، وأنهم – أي العفاريت – نقلوا له البراميل من بلدة إلى بلدة... وهكذا! ولا يزال الجماهير بل وكثيرون من الخاصة يعلقون على هذا المعتقد آمالاً، وتحدث لهم أوجالاً، ولا يزال أغلب المسلمين الجاهلين يرجعون حين رغبتهم ورهبتهم إلى الأموات بل وإلى الجمادات وإلى الأحجار والأشجار، مستغيثين بالأرواح التي لها إتصال بها على حسب ما يتصورون، طالبين منها كل ما يرجعون، ومستدفعين بها كل ما يرهبون، زاعمين أنها تسمع لهم وتقدر على إجابتهم، وأنها تفعل ذلك من أجلهم راضية مسرورة! وقد صرفوا في هذا الغاية نفائس جمة من وقتهم وتفكيرهم وعملهم وعبوديتهم ورجولتهم وذلهم وخضوعهم...! وقد فرضوا على أنفسهم بسبب هذه الخرافة ألواناً عجيبة من العبادات والفروض، وأعداداً عديدة من الأعياد والمواسم الزاخرة بالنذور والقرابين والهدايا والضحايا! وقد أضحت عبادة الموتى وعبادة أرواحهم أعظم وأضخم مظاهر عبادات هؤلاء الجاهلين في مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها، حتى استقر في أذهان العامة، بل وأذهان الخاصة، أن هذه العبادة هي أفضل فروض الإسلام وأوجبها وألزمها، وأضحى الخلاص منها محتاجاً إلى جهود الجبارين. والله المستعان على جهل الجاهلين.

وقد تلونت هذه الخرافة في عصرنا هذا ألواناً أخرى غير ألوانها القديمة. وقد حاول العلم هذه المرة أن يتدخل في تلوينها وتحسينها، كدأبه في هذا الزمان إذ يتدخل في كل شيء، لأن الزمان زمانه والميدان ميدانه... وقد تدخلت أوروبا وأمريكا هذه المرة في هذه المسألة وبذلتا عونهما. وإذا تدخلت أوروبا وأمريكا في شيء فقد عز جانبه وعظم شأن أنصاره.

نعني بهذا إستحضار الأرواح والإتصال بالميتين وهم في عالمهم الأخروي. وقد طال الكلام في هذا الموضوع واشتد الجدل وألفت فيه الكتب والرسائل

والمقالات التي تعجز العاد المحصى، وانقسم الناس فيه فريقين متبارزين. ولكن الفريق المنكر النافي هو فريق العلماء المحققين الأكثرين. أما المثبت لهذا الإتصال ولهذا الإستحضار فيكاد يذوب في الخضم، ويكاد يجمع على حسبانه بن فلول الدجالين الجاهلين... وكل هذا لا يعنينا لأنه ليس في صدد من بحثنا، ولكن الذي يعنينا هو أن الكثيرين من صرعى الأوهام عندنا قد صفقوا ورقصوا على أنغام هذه الخرافة الجديدة، وراحوا يشيدون عليها القصور وذهبوا ينبشون جيف الخرافات من مدافنها في أعماق أنفسهم وأعماق الأزمنة القصية ليردوا إليها الحياة بهذا الإكسير الجديد.

وقد راحوا يحتجون بهذا الإستحضار على ما كان يزعم قديماً للأرواح من قدرة وتصرف في الكون والطبيعة بدون حدود ولا قيود، وراحوا يصدقون ويدعون إلى تصدير ما كان ينسب إلى الموتى وإلى المشايخ والأولياء من أعمال لا يستطيعها إلا من استطاع أن يقهر خصائص المادة وقوى الطبيعة الطبيعية، وأن يخرق كل ناموس في الوجود وأن يبطل كل سنة فيه! وراحوا من أجل هذا يحسنون دعوة الأموات وسؤالهم الحاجات بل ويحسنون عبادة المخلوقين والإنقطاع إليهم.

وقد استطاعت هذه الخرافة الجديدة أن تستهوي رجلاً كان في سابق أمره يعد من الفضلاء العلماء، وأن تفسد عليه فضله وعلمه وعقله حتى صار يتكلم في هذا الموضوع كلام من هو خليق بأن يعد في زمرة المرضى لا زمرة الفضلاء المحققين، وراح في كل مجالسه يهذو بروايات وحكايات أقل ما توصف به أنها مما يصم مسامع العلم والعلماء، ومما يخجل منه العقل والعقلاء... من ذلك أنه يحكي – ويقسم على ما يحكي – أنه يعرف رجلاً في الريف المصري كان إذا أراد شيئاً ما – ولك أن تقدر هذا الشيء وأن تتصوره كما تشاء وكما يشاء الغلو والخيال – لم يكن منه إلا أن يضرب على عجيزته بيده وأن يأمرها بأن توجد هذا الشيء المطلوب فيوجد في الوقت نفسه!! وقد سألته مرات عديدة وقلت له: افرض أنه طلب من عجيزته أن تعد جيشاً كاملاً، أيمكن أن يوجد ذلك الجيش! فكان جوابه الإيجاب بلا تردد ولا إستحياء! فسألته وقلت له: أجاد أنت أم هازل، فأقسم أنه جاد، وأقسم ثانية بأن من يشك فيما حكى فهو كمن يشك في المحسوسات.

ومن حكاياته ورواياته أنه ينقل عن شيخ آخر أن جماعة من أصدقاء ذلك الشيخ ذهبوا إليه في بلدته زائرين، وبعد جلسة طويلة عرض عليهم أن يأكلوا فقبلوا، فأحضر لهم مائدة كاملة بأوانيها وكراسيها وأطعمتها ولحومها وبقولها وفواكهها وكل ما يلزم لها... ولعلك تسأل هنا وتقول: من أين أحضرها فأجيبك، كما أجابنا هذا الرجل، بأنه قد أحضرها من الهواء والكون ومن عناصر الطبيعة اللازمة لهذه المائدة من أشتات النباتات والموجودات، فركبها تركيباً صناعياً، فأحضر المائدة المطلوبة كاملة! وبعد الفراغ من الأكل رفعت روحه بقايا الطعام وأدوات المائدة بسرعة وبدون عناء.

ومن حكايته أن شيخاً آخر كان يومىء بيده في الهواء فترجع إليه ملأى بالنقود التي يطلبها أو تطلب منه، بل ذكر هذه الحكاية عن رجل آخر غير مسلم.

ومن حكاياته أن شيخاً آخر كان يقيم في بلدته وكان الناس يأتونه ويعطونه النقود طالبين إليه أن يشتري لهم بها أشياء من القاهرة، فيأخذ نقودهم ويرسلها في الفضاء صوب القاهرة، ثم يرسل يده مرة أخرى ثم يرجعها وفيها الشيء الذي طلب شراؤه.

ومن طرائفه أن شيخاً ذهب إلى أحد المتاجر فاشترى شيئاً، وكان لا يحمل معه عملة فبعث روحه فأحضرت الثمن من البيت في لمح البصر بين دهشة التاجر وإستعظامه!!

وأشنع من هذا كله أنه يذكر في مجالسه عن أحد هؤلاء الروحانيين أنه مرض ذات مرة ولم يكن حوله طبيب يعالجه، فأحضرت له روحه طبيباً صناعياً ألفته من الكون فقام هذا الطبيب الصناعي بالكشف وبتشخيص المرض وبالعلاج، ثم عاد فأعدمه وفرق عناصره وردها إلى ما كانت عليه وإلى أماكنها، ثم أحضر الدواء أيضاً من الهواء ثم عالج نفسه.

وقد قام بيني وبين هذا الإنسان مرات حوار في هذه الحكايات، وقد جادلني مرة زاعماً أن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء إنما هي من عمل أرواحهم! فقلت له: وإنشقاق القمر! وكان السؤال مفاجئاً! فقال إلا هذه.

وزعم لي مرة أمام الجماهير أن أرواح الميتين تعلم العرائض والشكايات التي تقدم إليها وتعرف ما فيها وتقدر على إعطاء ما يطلب فيها منها مهما كان إسراف الطلبات... قال ولكننا ممنوعون من الطلب منها ومن سؤالها - لأن

الرجل على رغم هذه الخرافات ينكر سؤال الموتى ودعاءهم. وهو يدعي أن الأرواح تعلم الغيب وتعلم كل شيء.

وقد افتتن بهذا الإنسان جماعة من الإخوان الفضلاء كانوا يحضرون مجالسه، فصاروا يؤمنون بكل ما يقول.

ومن العجيب أنه هو وهؤلاء المؤمنين به يعادون من لم يؤمنوا إيمانهم وينسبونهم إلى الضلالة وإلى جحد الروح! بل ربما زعموا أن من لم يؤمن بمثل ما آمنوا به فهو ملحد أو شبيه بالملحد.

ولهذا الرجل أخلاق ما أغربها: فهو يسب الناس الذين يحضرون مجلسه ويجلدهم أحياناً جلداً حقيقياً! فإذا ما خوطب في ذلك قال: أنا أكبر منكم سناً وأكثر علماً! أي إنه يحتج لجواز الضرب والسب والإهانة بكبر السن ووفرة العلم! والغريب في الموضوع وفي النفس البشرية أن هذا الإحتجاج يصيب إستحساناً وموافقة عند بعض هؤلاء المضروبين المجلودين بين يديه! فيرضون ويسلمون له أبشارهم وأعراضهم يسبها ويجرحها.

ولم يدر لا هو ولا هم أن كثرة العلم وتقادم السن لم يكونا قط في نظر العقلاء ولا في نظر الناس العاديين داعيين إلى العدوان وسوء الأدب والصحبة! لأن العلم فضيلة والفضيلة يجب أن تكون سبباً في الفضيلة لا في الرذيلة، ولأن تقادم السن يجب أن يكون مقرباً مكن الأدب لا مبعداً عنه... وقد كلمت مرة أحد هؤلاء المؤمنين له في هذه المسألة – وكان مكلمي هذا يرى أنه لا مانع من هذا الذي يصنعه الشيخ ما دام صادراً من الأعلم إلى الأجهل! فقلت له إذن على هذا يجوز أن يكون كل إنسان، حتى هذا الشيخ نفسه، ضارباً مضروباً ساباً مسبوباً! إذ كل إنسان يوجد من هو أعلم منه ومن هو أجهل منه وكل إنسان يفعل هذا بمن هو أقل منه علماً ويفعله به من هو أكثر منه علماً! فالشيخ المذكور له أن يهين وأن يضرب من هم دونه، ولمن هم فوقه أن يضربوه ويهينوه! وهل يذهل إلى هذا عاقل؟

وقد حاول هذا الشيخ مرات أن يستدل على جواز صنيعه هذا بما جاء عن عمر ابن الخطاب أنه كان يحمل معه درة ويضرب بها من يخالفون الأوامر ومن يخرجون عن الطريق! وهو يهذا الإستدلال يدخل عمله هذا في حدود الشريعة الإسلامية، ويجعل جلده للناس وإهانتهم وسبهم حدوداً شرعية يقوم بها من قبل الإله نائباً عن الرسول وعن الخليفة عمر! ونعوذ بالله من خذلان مثل هذا